

بروا

محمد ناپوليون السماء

297.63

B277mA
C.1

مجلد ٢٠

ناپوليون السماء

- تأليف -

جان بـروا

نقله عن الافرنسية

محمد صالح البنداق

وسبكه

هاتم الرفعة دار المديني

الاستاذ في كلية فاروق الأول الشرعية في بيروت

67939

منشورات دار الانصاف

Cat. June 1948

سلسلة
الثقافة الإسلامية

— الكتاب الاول —

دار الانصاف
للطبع والنشر

— (جميع الحقوق محفوظة) —

بيروت — شارع المعرض — ١٩٤٧

المقدمة

لقد تطورت كتابة الغربيين ، على وفرتها فيما تناولته من تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم والبحث في تعاليمه وما قام به في هذا العالم من ايجاد ، وتأسيس لدين من اكبر الاديان العالمية

اجل لقد تطورت بتطور العقلية العلمية ، وانفلات النفس من اغلال التقاليد ، وقيود الوراثة ، وتأثير البيئة ، وسلطان التحكم العاطفي حتى اصبحنا في اشراق هذا العصر الحافل بالحرية ، والذاخر بالتسامح ، نتلقف بلهفة واكبار ما كتبه المستشرق الكبير ، الاستاذ « جان بروا » عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم

لا ريب انها سيرة من طراز جديد في تحري الصدق ، وقصد التقيد بالواقع ، والتبسط في جمال الاسلوب ، والتفنن في التبويب والسمو ، والتناهي عن الاسلوب العلمي الجاف .
والمؤلف قاصد لهذا التحقيق ، والصدق ، والتقيد بالواقع ، اذ يقول :

« ولقد كتبت مؤلفي هذا لاقدم للأوروبيين صورة النبي الحقيقية كما هي في ثوبها التاريخي الحقيقي فان كثيراً من الفرنسيين يحسبون ان محمداً هو صورة مجسدة للذات الالهية » .

« كما انني حاولت جهدي ان اتناهى عن الاسلوب العلمي البحت لكي اجعل قراءة كتابي هذا فاتنة جذابة مع التقيد بالحقائق التاريخية العلمية » .

ومؤلفنا هذا كاتب عشق الحقيقة الاسلامية ، وفنته شخصية
النبي ، وحبت اليه تعاليمه ، وجعلته يبذل جهوداً جبارة في دراستها ،
والنظر فيها ، والكتابة عنها . وهو ككل مستشرق ، يود من
اعماق نفسه ان يرى اثر مؤلفه في العالم الشرقي كما رآه في عالمه الغربي :
« ويسرني ان أرى مؤلفي في ايدي المسلمين بعد ان اطلعت

الغربيين على الصورة الحقيقية للنبي » .
والذي يدل على تطور العقلية الغربية الحديثة ، وأنها اصبحت
تؤثر المعرفة والحقيقة على كل شيء ، هو اقبالهم (على ما يكتبه اليهم)
« جان بروا » وامثاله اقبالاً شجعهم ان يفكر بأن يمحوا كل ما كتبه
الكتابون تحت سلطان البيئة ، والوراثة ، والتقاليد ، بقوة وعزم
وشجاعة . ولولا ان العقلية الغربية اصبحت تؤثر المعرفة والواقع
التاريخي على كل شيء لما قال عن الحروب الصليبية التي ينوي ان
يخرج سفرًا مجيداً في تاريخها :

« يوم خرجت الفيالق الاوروبية النصف بربرية على حد تعبيره
وسنت غاراتها الوحشية على الحضارة العليا فانتسبتها ورجعت باسلاها
العلمية وبالختراعات التي ازاحت بها عن اوروبا ظلمات العصور الوسطى »
* * *
وانا نحسب القاريء العربي يشد في نفسه باعث الشوق ليعرف
شيئاً عن مؤلف كتاب :

﴿ محمد ، نابوليون السماء ﴾

والحديث عن هذا المؤلف الكبير والكاتب القدير ، يطول بنا
جداً لو اردنا ان نتناوله بتبسط . ولكن يسرنا أن نقول بايجاز ان
عاصمة الافرنسيين سعدت بولادته عام ١٩٠٧ وتثقف بها .

وقد احترق الصحافة والتحق بكبريات جرائدها حتى أصبح رئيساً لدائرة الاستعلامات في جريدة «باري - ميدي» (١) كما ساهم في تحرير جريدة «باري - سوار» (٢) وهو اليوم رئيس تحرير مجلة «ليل ونهار» (٣) وهو مؤلف بارع له غير هذا الكتاب من المؤلفات : «هارون الرشيد شمس بغداد» و«الاسكندر الكبير» و«مكة ، البلد الحرام» .

وكانت لنا هذا وطني غيور ، له جهاده المجيد ، ونضاله الجبار ، في سبيل امته . فقد اشتبك في هذه الحرب العالمية الثانية ذائداً مغامراً حتى اسر وسبق الى المانيا ولم يفرج عنه الا بعد نهاية الحرب .

* * *

والى جانب ذلك فقد دفعه حب المعرفة والاستطلاع ان يجوب اكثر بلدان العالم : انكلترا ، والولايات المتحدة ، وكندا ، وتركيا ، والجزيرة العربية ، حتى اشتبك عام ١٩٣٦ في اداء فريضة الحج والتشرف بزيارة النبي العربي .

* * *

ولعل قارئنا العربي يتساءل بما لا يتساءل عنه القاريء الغربي ، عن الباعث الذي جعل المؤلف يعطي كتابه امم : «محمد ، نابوليون السماء» .

بيد انه يطمئن الى حكمة هذه التسمية ، ويدرك مغزاها العميق حين يعلم ان نابوليون قد كتب عنه في عالم الغرب حتى اليوم ما

١ - « PARIS - MIDI »

٢ - « PARIS - SOIR »

٣ - « NUIT ET JOUR »

يزيد عن المئة ألف مؤلف . بينها المجلدات الضخام . ولما ينطو القرن الثاني على وفاته بعد . وأن الرد الذي جاء على السؤال الذي وجهته إحدى المجلات الأميركية الكبرى إلى ألف استاذ من اساتذة التاريخ في مختلف جامعات الولايات المتحدة :

= من هو اعظم قائد انجبه التاريخ ؟

= نابوليون ! نابوليون ! .

فلما كانت هذه معرفة الغربيين بعبقريّة نابوليون الحربية الحارقة للعادة ، ولما كان مؤلفنا قد امعن درساً في شتى العبقريات التي اختارها الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، اختياراً حافلاً بالاقداًس والاسرار والمعجزات : عبقريات في البلاغة والقيادة الحربية ، في التشريع والاقتصاد والادارة والدبلوماسية ، في تحرير الامة وتأسيس الدولة ، في المبادئ الانسانية العالية ، والتشريع الدولي في النهوض العلمي ، وتحرير العقل ، أثر المؤلف ان يطلق اسم نابوليون على محمد ليعرفه الغربيون ، ونسبه الى السماء لأن الأرض لم تعرف بعد ولن تعرف انساناً واحداً يستطيع ان يتفوق ويحرز سبق المعجز في كل هاتيك العبقريات .

* * *

وقد اعتاد المؤلف ان يعرف للغربيين شخصيات رجال الاسلام باطلاقه عليهم اسماء الشخصيات التي يعرفونها توضيحاً لما يريد عرضه خذ مثلاً اطلاقه على الفاروق الاعظم اسم :

« قديس بولس » الاسلام .

* * *

وفي النهاية نشير باكبار الى ما جاء في « هلال » حزيران ١٩٤٧

« اما المادة المترجمة فمن مذهبنا ان نتجنب الترجمة الحرفية ،
اذ انما ينشر في الخارج قد كتب لجمهور غير جمهورنا . فلا بد
من التصرف والاقتباس والسبك من جديد » .

لانها هي الطريقة التي بها يستطيع المترجمون ان يهيمنوا على
المجتمع العربي وان يقربوا اليه افكار كبار علماء الغرب .
من اجل ذلك نجد كتابنا يشتمل على روح المؤلف الحقيقية ،
ولكنها في هيكل عربي جذاب ، يطمئن قارئنا الشرقي الى اسلوبه
العربي وترجمته اطمئنان القاريء الغربي الى اسلوبه الافرنسي الذي
عرض المؤلف به الكتاب نفسه .

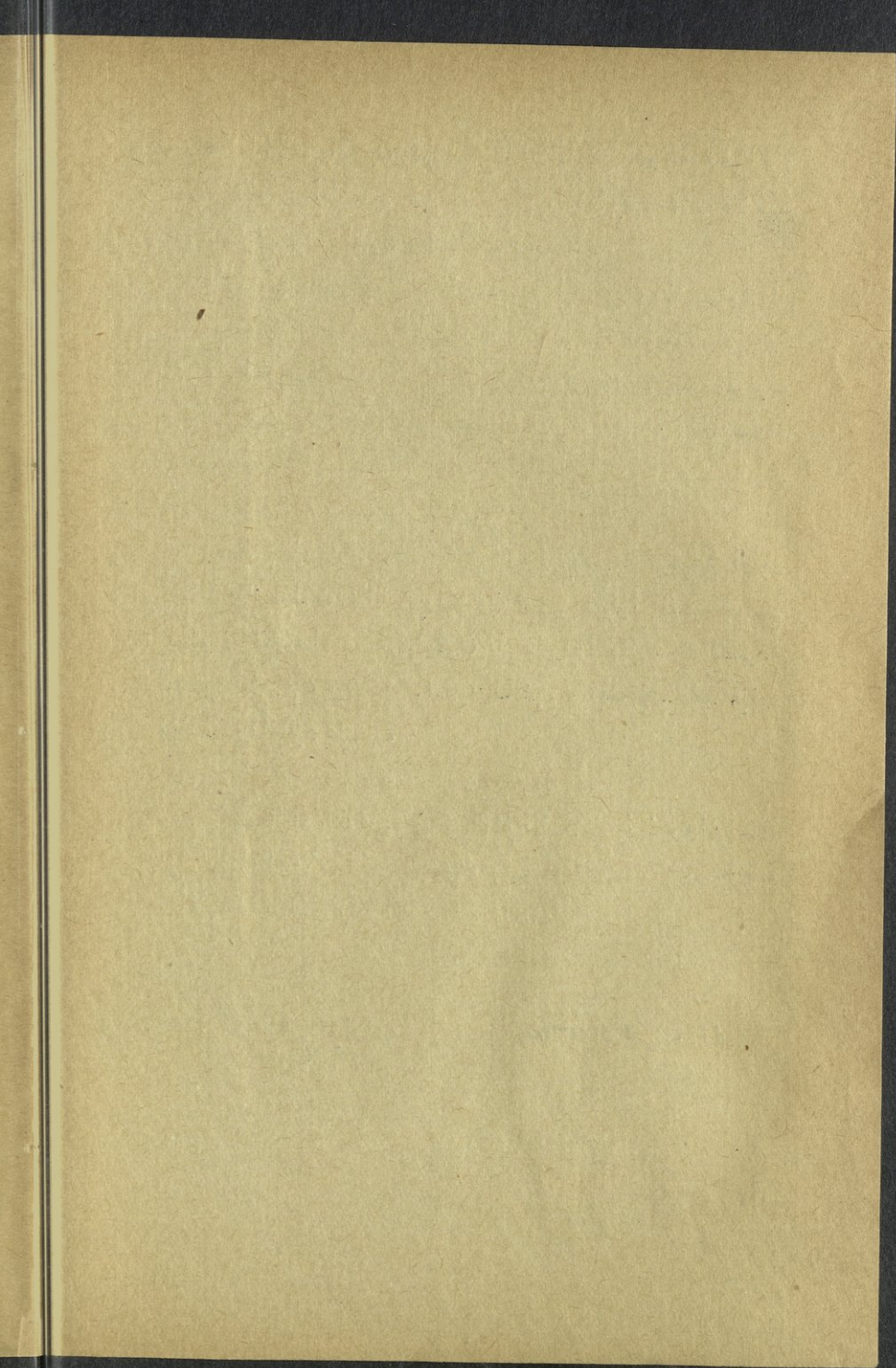
وقد جاء هذا المذهب الذي اثره « الهلال » صفقة في اوجه
اولئك المتحذلقين ، الذين يريدون ان يعرفوا انفسهم بأنهم
يحسنون اللغات الاجنبية فينعمون كل ما رأوا مثل هذا التصرف
المقصود للافهام ، والتأثير النفسي ، ولكنهم لا يجدون سامعاً لنعيقهم
ولا مكثراً بالرد عليهم .

* * *

ولا يسعنا الا ان نقدم شكر العالم الاسلامي لجان بروا وامثاله
من العلماء المحررين الذين ينهضون بالمعرفة الانسانية الى محراب
الواقع والحق المقدس !!

هاشم الدفتر دار المدني

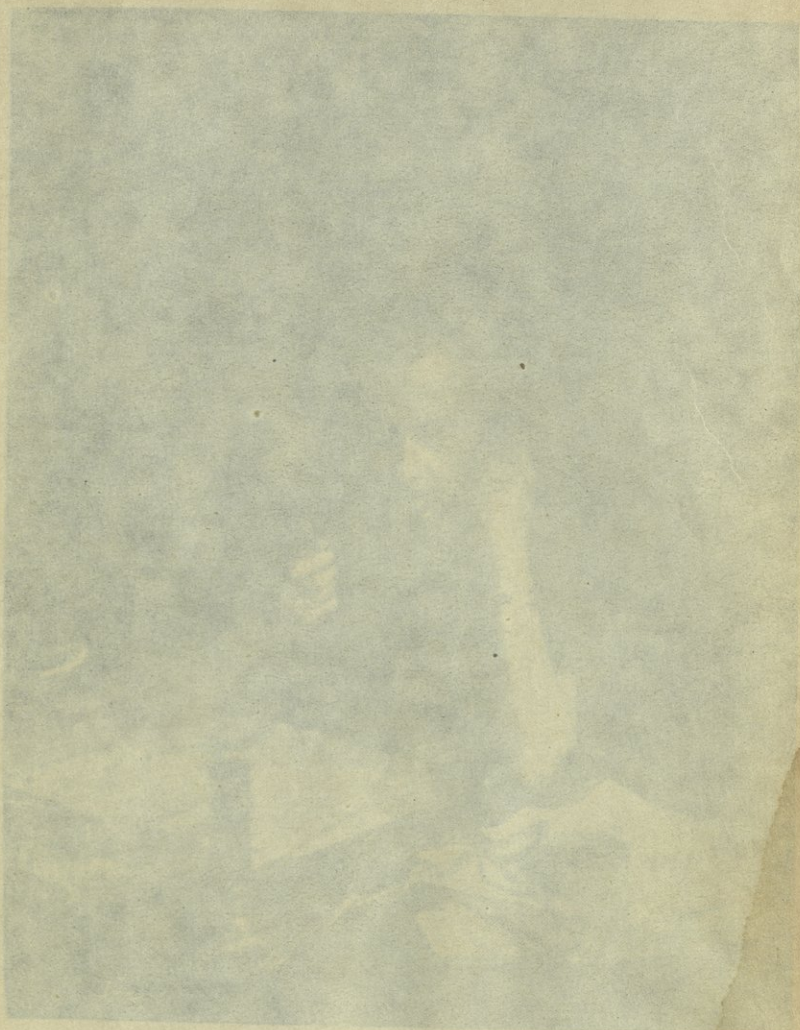
محمد صالح البنداق





رسم المؤلف ، المستشرق الكبير

جان بـروا



ویدایه شفا و سلامت

امین لاج



رسم المؤلف

في زيه العربي يوم قام بزيارته الى الأماكن المقدسة سنة ١٩٣٦



سفارة

١٩٢١ سنة تسلطت في الامارة على ما يليه و هو في ما يليه في

الفصل الاول

ارضنا هذه احفل مسرح تمثل عليه الامم ادهش المشاهد واغربها
في كل عصر ، استجابة للارادة الالهية المهيمنة على نواميس الوجود .
فمنها ادهش المشاهد واغربها ، التي تظل خالدة يدوي صداها على مدى
الاجيال ، ومنها ما يمر كالاطياف الخاطفة لا يحفل به ولا يدري عنه
شيئاً ، وما ذلك الا لأن تلك المشاهد لها مكائنها وحيويتها من الخلود
والعظمة ، وهذه تافهة لا تستحق حياة ولا خلوداً فليس لها من نداء !
واخلد واجل مشهدٌ مثل على هذا المسرح الارضي الواسع ، كان
ذاك الذي قدمته بلاد العرب للعالم في منتصف القرن السابع للميلاد
حين اشرفت سنة ٥٦٩ م على نهايتها كان الامبراطور يوستنيانوس
الثاني في قصره الفخم في بزنطية ، يجمع اليه ما خلقه له والده من تحف
وطرف واموال وعتاد ، ويللم اطراف امبراطوريته العظمى بعد ان
مزقتها فيا لثق روما ، ويستعيد سيادته على العالم الاسيوي والافريقي .
ان هذه الامبراطورية العظمى التي ورثها يوستنيانوس كادت ان
تفني بها الى الفناء الاضرابات الداخلية والفوضى ، التي دفعت
الفرس والبرابرة على اقتسام اطرافها ، واكتساح حرمتها ، وجعلها
فريسة منهوبة فيما بينهم .

ولم تكدمر على اعتلاء يوستنيانوس عرش بزنطية اربعة اعوام حتي
تهللت دولته ، وخضت شوكرته ، وتفككت اواصرها ، وانحازت
الى التداعي !

هذه الكنيسة نشبت فيها مخالب التمزيق وهذا الشقاق يهدد نفسه

طريقاً رجباً فيملاء ارجاءها في عهد الباباجان الثالث ، فيقف هيال ذلك مكتوف اليدين لا يفعل شيئاً وليس له من الامر شيء ، وهو الذي كان يعتقد ان مملكته ليست في الارض فحسب

وهذه المسيحية تمزقها البدع التي ثارت في الشرق وارتتها الاضطرابات التي لمست ثوباً دينياً فأهاجت التفرقة بين اتباعها . فما انت ذاتي الآريين والنسطوريين والنصارىين والاورثوذكسين تزعرهم الفتن وتحط من كيانهم ، وما انت ذا ترى صور القديسين توله وتنزل منازل آلهة الوثنيين حتى تصبح شريكة لله تشاطره العبادة والتقديس هذه بزنيه ، وهذه رومه ، وهذه دولة فارس عابدة النار ، وهؤلاء هم ارباب النحل والمذاهب كزاردشت وسواه ، وهذا هو كسرى فارس انوشروان ، الذي بلغ من حولة المملكة ارفع الذرى ، واستطاع بما اوتي من قوة وشركة وحكمة وعقل ان يسمو بدولته ويحكم حصونها وتخومها ، فلا يدع فيها ثغرة لعدو ولا بجالا لحاقد او عاث ينفت فيها التفسخ والانحلال .

هاتان مملكتان تتجاذبان السلطان وتتنازعان على امتلاك العالم وكل منهما في افاق يمد من اطرافه ويفسح اكنافه ، انه صراع الشرق مع الغرب وصراع زرادشت مع المسيح ، حتى اذا هدأت المعركة وانطفأت شعلها انبعث صوت رهيب من قلب صحراء العرب يدوي بقره ورهته بل ويزلزل الامبراطوريتين ايما زلزال !! ...

وفي الوقت الذي كان فيه الامبراطور يوستينيانوس الثاني والباباجان الثالث وكسرى فارس يتلقفون بافواف الحروب الناعم ويتقلبون على ارائكهم الوثيرة ، ويستشقون النسايم التي تحمل اليهم غير الازهار ولذيد الاحلام ، وتمر بهم اطياف ممتلكاتهم وما

اوتوه من نعمة وسلطان ، وما يرجون ان يؤول اليهم من بلاد
 ويفتحوا من اقطار تنحاز الى امبراطورياتهم ، دوى ، دوى صوت
 ذلك الشاب العربي الفسيح الذي وقف في بلاد العرب ، في منى ، قريباً من
 مكة وقف في ذلك الوادي الفسيح الأجذب الذي لا تضحك فيه حدائق
 روما ، ولا تبسم فيه انهار فارس والعراق ، لتغمر اطرافه بالحصب
 والنماء وبهجة الحياة وزفافة العيش ، وقف فيه على وعث رماله
 وشموخ جباله الجرداء العارية التي تكتنفه من كل جانب ، وقف
 حيث وقف من قبل جده ابراهيم الخليل يقدم قربانه ، وقف ينادي
 بصوت داوٍ رهيب ملاء مع الامصار والاملاك وذوي السلطان :
 « الا فليعلم الناس جميعاً ، اذا كان ثمة في محراب التاريخ المقدس
 الخالد روما ، وبزنطية ، فهناك ايضاً في صدر ذلك المحراب ، يجب
 ان تسمع بلاد العرب » . -

* * *

في الجزيرة العربية التي يغمرها الجرب ربت في قلبها تحت ظلال
 البيت وتكاثر انسال اسماعيل . انها الجزيرة المحيطة التي وقف حيالها
 ملوك الفرس واليونان والرومان وسواهم ، وهم اقوى شعوب الارض
 واشدهم مراساً ، واكثرهم جنوداً ، وقفوا خاشعين عاجزين
 لا يستطيعون قهرها بل ولا يستطيعون اقتحامها .

اجل !! اجل !! ها هو ذا الاسكندر المقدوني الذي لم يدع بلداً
 الا وفتحها ، ولا قطراً الا واجتازه ، يقف حيال جزيرة العرب بعد
 ان دوخ العالم واسقط العروش والسيجان ، يقف حيال تلك الحصون
 الطبيعية التي انزلها الله رمالاً لا تطمس الاعين ، وعواصف تبتلع الجنود
 وصغارها لا يجمعها الا الموت والفناء ، وجبالاً شاححة لا يقوى على

تسلقها متسلق ، وقف مبهوراً مأخوذاً ، تخاذلت كبرياؤه حيالها ،
وتداعت شوكته وهو يستمع الى نصيحة احد قواده
« لا تفكر في اقتحام جزيرة العرب » وينذره بالتمزق والفناء
العاجل ان هو غامر واقتحمها !! .

اجل ! هي جزيرة العرب ! السماء حصنتها ، والطبيعة احتضنتها
بمناعتها وجبروتها وبطشها وارهابها ، تفتك بكل غاشم جبار ،
وتبتطش بكل عنيد مستكبر .

والعرب انفسهم امة ذات مراس شديد ، تفقدي الحرية بالانفس
وتهموى الاستقلال ، وتعيش في موطنها عيشة الابهاء ، تنتجع مواطن
الكلاء ، وترتاد ينابيع الماء ، قلما يطيب لهم المقام تحت السقف ، بل
يستخفون مساكنهم يوم ظعنهم وينتقلون بها حيث يطيب لهم العيش
ويحتضنهم الحصب .

تفتتهم سماؤهم الصافية ويروعهم اثلاق النجوم وانسكاب
اشعتها المشرقة على خيامهم ومواشيهم .

انهم يعيشون عيشة قبلية ، تغير كل قبيلة على سواها ، ويفزون ،
وفي الغزو مناط حياتهم . ليست لهم حكومة مركزية يحكمون
اليها ، وتنظم لهم حياة الاجتماع ، وليس لهم دستور يستمدون منه
الامن سوى عرف الصحراء الذي يفرض الرئاسة للقوي على الضعيف
وكلهم ابطال اشاوس مرنوا على النضال والكفاح فالضعيف لا
وجود له بينهم . . .

والذرية في القبيلة اعظم ثروة يفاخرون بها واجل متاع ، بل
هم عمادها الذي يعتمدون عليه في مغالبة البقاء واستمرار الحياة .
ومجموع القبائل متنافرون متناحرون ، وانى يكون لهم الوفاق

وليس لهم دولة ولا امة ولا شرائع يستمدون منها الوحدة والقوة
ليكونوا امة واحدة؟! نثرتهم ايدي سبأ مطالب العيش الجديب ،
واوغل فيهم عداوة وتفائراً الروح القبلي ، فجعلهم متفرقين ، وهم
فرحون بفرقتهم ، اعداء وهم مسرورون بعداوتهم .

* * *

آلهم ما ينهتون من احجار ، وما يتخذون من اصنام يعكفون
حولها ويزعمون انها تقربهم الى الله زلفى . ومنهم من كان يعبد
الشمس والقمر والنجوم والجن . ولم كان يسبح بهم خيالهم في افلاك
السماء ، فيرون وراها ارواحاً تسكنها وتجريها في مجاريا وتملك
نواميس الكون .

مكة تحتل قلب الجزيرة العربية والقبائل حولها من كل فج
عميق يحجون اليها في كل عام ، ويستنشقون في ظلالها ارواح السماء ،
فجلت في انفسهم مكانتها ، وتقديست وتعالى اسمها حتى اصبحت اكبر
مركز تجاري تمر به القوافل ، وكثر سكانها ، وانشأوا الدور
والمنازل حتى ذكرتها الكتب القديمة ، وجاء ذكرها في الاديان
والروايات التاريخية : مكة هي اقدم بلد في العالم نهم فيها آدم
وحواء ، بعد ان اخرجها الله من جنته ، وتعارفا في عرفات بعد
ان حرما من نعمة الاجتماع في السماء ، فاي جبل نال من الخطوة
ما ناله عرفات ؟ ! . .

وفي مكة انزل ابراهيم ولده الحبيب اسماعيل وامه هاجر وبها
شيد بيت الله ، وفيها تفجر ماء زمزم المقدس ، تحت قدمي اسماعيل ،
وكما ان الله منّ على اليهود بان جعل جدهم اسحاق ، فقد من على

العرب المستعربة بان جعل جدهم اسماعيل . وهذا هو الحجر المقدس
ينزل به جبريل من السماء ابيض ناصعاً كوهج الشمس هدية الله الى
ابراهيم واسماعيل ، فأقاماه في ركن من اركان البيت علماً للطائفتين
وهدى للركع السجود . اوّاه ! ولكن آثام الناس وجرائزهم لم
تزل تغشيه بسدفة قلوبهم حتى استحال ذلك الكوكب السماوي على
تعاقب الاجيال ، اسود حالكا كجنح الليل ، يا الله كم للبشر من اوزار ! ..
اجل ! في مكة بيت الله ! وهو مستقر افئدة العرب ، ومهوى
نفوسهم ، اليه يحجون من كل حذب وصوب وفيه يستلمون السماء
ويستوحون الارواح . وحول البيت شيدت منازل التجار وقصورهم
وذوو المكانة في قريش .

ان مكة ثابت لها الرئاسة الدينية كما ثابت لها الرئاسة التجارية
فهي مركز التجارة وممر القوافل الآتية من اليمن والذهابة الى الشام ،
اذن فالحضارة عريقة في بلاد العرب ولها صلة بحضارات الامم القديمة :
الهند والحبشة والصين والروم والفرس ، صلة من الناحيتين : المادية
والروحية . انك ترى القوافل تجتاز طول الجزيرة وعرضها مثقلة
بالمعادن الثمينة والحرائر والعطور والاحجار الكريمة والتوابل
والصموغ والتمور ، وتثوب بالقمح والزيت وانسجة الكتان والعتاد
الحربي الذي كان يصنع في دمشق .

ان مكة كانت جمهورية تجارية ومركز زعماء القوافل على الرغم
من محل واديتها وجفاف ارضها وشح مياهها ولكنها ازدهرت بالتجارة
وتوفر فيها كل شيء مما لم يتوفر لبلدة سواها في جزيرة العرب .
وقريش كانوا سادات مكة واشرافها ، هم احسن العرب وجوهاً

واعرفهم بمحمد واسماهم شرفاً . وغرة قريش التي تروها بها وثفاخر ،
هم بنو هاشم ، اليهم يرجع امرها ومنهم ينبثق السلطان والنفوذ ، لهم
الكلمة العليا التي لاتطاولها كلمة . وعبد المطلب زعيم الهاشميين و كبير
قريش ، هو عقلها الحكيم ومستشارها لدى النوازل والملمات !

تراهم ابدأ حوله كاهالات يستمعون اليه ويصيخون ، هو الحكم
العدل الذي لا تحيفه غطرسة المستكبرين ، ولا تحيد به عن الحق
ولا يستهويه زخرف المسادة ولا يغويه انه جواد كريم لا ينجب لديه
رجاء ، يبذل عن سعة ، ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، حتى نضبت
ثروته وشجت بين يديه الاموال ، ولم يبق له من قوة سوى بنينه
الابطال يعتز بهم ويمتنع اذا حزبه الامر .

هؤلاء البنون الذين لم ينلهم الا بعد صبر وجهد ، اما رأى نفسه
مستضعفاً حين ظفر بالسلاح وهو يحفر زمزم فلم يستطع ان يدفع عنه
عدوان قريش واطمائهم ، انه ادرك منذ ذلك اليوم ان في البنين
لعزاً وقوة ومنعة ، فنذر وهو على اشد ما تكون اللهفة للذرية ،
لئن رزقه الله اثني عشر ولداً ليقدم احدهم قرباناً لوجهه .

وكانت السماء مصيخة الى دعاه ، فما اسرع ما اقبلت عليه الذرية
وتهاذى اليه البنون ، حتى استوا بين يديه اثني عشر ولداً .

النذر ! النذر ! الوفاء ! الوفاء ! لم ينعم بعد ذلك بطيب العيش
ولم يغمض له جفن ، انه وفي ، انه مؤمن ، ما اعتاد ان يعبت
بمحقوق الآلهة .

اعتزم ان يقدم القربان ولكن طيف الحنان كان يأخذ بمجامع
قلبه ، وبالاخرى ، كلها شهداء اولاده يروحون ويفدون حوله ،

كيف يضحي باحدهم وليس فيهم ما يستطيع عنه صبراً ،
كيف يرضى وكلهم في شرك القلب سواء ؟
ولكن حقوق الآلهة اكبر واجل من الابناء مهما يكن التعلق بهم
والحذب عليهم . الآلهة ! الآلهة ! انها جبارة ، انها تنتقم لنفسها ،
لعلها بعد ذلك لا ترضى بهم جميعاً فداءً اذا مسخطت . العجل ! العجل !
البدار ! البدار !

ها هو ذا يتقدم فيضرب القداح وحوله زعماء قريش وملاء بني
هاشم ... ويجه ! ويجه ! ماذا يريد ؟! يستدير السهم الى أثر بنيه لديه
واحبيبه ، الى عبد الله ، انه لا يرضى ان يموت هذا الغلام ، ولكن
ما يصنع ، والآلهة الجبارة منتقمة ؟ كيف يرضى ان يكون عبد الله
العذاء ولماذا اختارته الآلهة ، ان فيه لسراً عميقاً .

ها هي نساء مكة تنهر دموعها ، وهؤلاء الشيوخ يعنفونه
حينما يرونه مصراً على قتله وتقديمه للآلهة ، وها هو يتناول له لكي يقدمه
ذبيحة لآلهته ، ولولا ان جذبه ملاء بني هاشم منه ، وارغموه ان يلجأ
الى كاهنة مسيحية لكان عبد الله ذاته الفداء !!

امرته باجراء القداح تجاه عشرة من الابل لكل مرة يقع السهم
على ولده عبد الله احب بنيه الذي ارادته الآلهة ان يكون قرباناً
لها حتى ترضى . هنا طاب له العيش ورضي عن الحياة .

وهكذا ظل يضاعف الابل ويوالي السهام حتي بلغت السبعين
واقتردى اخيراً عبد المطلب ولده عبد الله ، الامر يريد الله ، كما اقتردى
ابراهيم ولده اسماعيل الذبيح .

هذا هو عبد الله والد محمد نسبه يتصل الى ابراهيم . سلسلة من

الذهب كل حلقاتها بمن ونبل، واسم كبير يملأ التاريخ فخاراً ويملاء
النفس اعجاباً واكباراً . فهو ابن محمد كريم وارومة رفيعة تعتز
بها العرب ، وتسمو على العجم .

عبد الله ، هو فتى قريش ، تراه وضاح الجبين ، مشرق الحيا
صافياً صفاء المرأة ، ينبثق في وجهة النور انبثاق الاشعة عن الشمس ،
عيناه سوداوان ، يزيد في سحرهما اهداب اجفان وطاف ، ويجذب
النظر اتساق انفه وجمال فمه وتموج شعره المجعد . كان فاتناً جميلاً
وكان كل ما يمتلكه من ثروة هي الفتنة والجمال . لا ! لا ! بل كان
الى جانب جماله وعلى كرم محبته عزيز الجانب بطلاً قوياً شديداً لاسر ،
انه يسير في مكة والعيون ترمقه والاصابع تشير اليه .

ها هو ذاهب ليؤذي نسكاً واذا به حيال فتاة رائعة الجمال
فاطمة الخثعمية ، تغريه وتمعن في الاغراء ، يمتلكها جماله وتسعرها
فتنته ، تتطلف له بكل ما تملك من ود وجاذبية وتجمع حيلتها لكي
تغويه بعد ان رجمت الشيطان بجبراتها وحاول ان يرحم : « من
انت ايها الفتى ؟ » - يطرق قليلاً ثم يقول : « اني عبد الله » ،
وكلما حاول ان يقتضب اطراف الحديث تمده مدأً وتسير به هنا
وهناك ، حتى اذا احست منه الملل طلبت اليه ان يزورها عشية
لتقدم اليه مائة من الابل هدية .

ولكن عبد الله لم يحتجب عنه غرضها من وراء هذه الهدية لانه كان
مهذباً سامياً ، يعلم نهاية هذه العروض المغرية ، وما وسعه الا ان
تسلل من بين يديها فاقصاً على عتبيه ، ليلقي زوجه الطهور آمنة .

ترصدته فاطمة في اليوم التالي على افواه الطريق ، ومناكب الدروب
التي تؤذي الى متى ، فطال بها التردد ، وهي تكاد تأكل الطرقات

بعينها ، وثبتلع الاشباح ، ولم كان قلبها يخفق ونفسها تهوي اليه حين رآته مقبلاً يتهدى على قارعة الطريق ، فهفت اليه وكلها امل وكلها رجاء . ولكن لم تكمد تنظر اليه حتى تداعت في مكانها وسكن وجيب قلبها ، وتراخت عنه ، وكأنها لم تكن بالامس هي التي كانت تطارده .

خابت وندمت ، لانها شاهدت بالامس شعلة السماء تشرق بين عينيه ، وتضيء وهاجة كصفحة القمر ، او جبين الفجر ، واليوم ، وقد فقدت تلك الشعلة وغاب ذلك النور ، ما وسعها الا ان تقول له طالعت في وجهك بالامس نور النبوة ، تؤذن به البشائر ، واليوم قد غاب ، وكان جل رجائي ان اكون مصدر ذلك النور وام ذلك النبي ! حمل عبد الله شعلة النور وادّاها الى آمنة بامانة وقدس ، ومثل دوره الذي انتدبته له العناية الالهية ، ولم يكدمعن في الصحراء بعد اشهر سبع بين اترابه من شباب قريش ، الذين يرتادون الشام لمتاجرهم ، ولم يكدم يستقر به المقام في يثرب ، في بيت اخواله من بني النجار ، حتى لفظ نفسه الاخير !

ولم يمر على وفاة عبد الله سوى شهرين ، حتى وضعت زوجته الطهور آمنة طفلها العظيم ، في الثاني عشر من ربيع الاول في شهر آب سنة ٥٧٠ م .

هذا جده عبد المطلب يوسع في وليمته ، ويدعو اليه رؤساء بني هاشم ، وهو الشيخ الوقور الذي اشتعل رأسه شيباً ، لم يقصر في ندى . انه يطعمهم كل ما تشتهيه الانفس وتلد الاعين ، يطوف عليهم وبين يديه وليده الحبيب ، يضمه الى صدره ضمّاً رقيقاً وحنوناً

وقد ترفق وحني عليه ساعده على الرغم من خشونته فكان بين يديه
وضاءً يسطع بالاشراق كالشمس الوهاج الذي يسلمه العداء المنهك الى
الذي لم ترأ فيه نارا الحياة في تأجج واستعار !! ...

كم هو عظيم هذا الطفل الذي هو امل العرب والانسانية !! ..
الدنيا بأجمعها انتظرت ولادته !
ان في حقيقته لسراً كبيراً ارادته السماء للارض ، انه ليبدو
جليلاً مهيباً وهو طفل !

* * *

قدم عبد المطلب طفله الحبيب لبني هاشم بعد ان انتهوا من
الوليمة فسألوه : اي اسم تؤثره ان يدعى به ؟
— محمد .

— محمد؟ يا لله انه اسم عظيم؟ انه اسم جديد لماذ انطلق عليه اسماً آخر؟
— هو محمد ، تحمده السماء فيكون بها عظيماً ، وتحمده الارض
فيكون بها عظيماً !! ...
— هو محمد وكفى !

* * *

هذه مكة وقد دُعر اهلها وتفرقوا في رؤوس الجبال وهؤلاء
هم الاحباش جاؤا اليها تتقدمهم القبيلة يريدون البيت ولا يريدون
سواه ، شادوا كنيسة الفليس وآثروها على بيت ابراهيم بل لم يرضوا
عن العرب ان يحجوا بيت ابراهيم ففقدوا الخناصر على هدمه
وجمعوا الجيوش .

زعموا انهم غصبوا لان واحداً من العرب دتس ذلك المعبد ،
زعموا ذلك ، ولكنهم يريدون البيت لشيء سوى ذلك ، انهم

يريدون هدمه ليكون منفذاً للروم وتسلاً لعقائدهم وجنودهم .
وهكذا خفيت طوية ابرهة على كثير من الناس وسار بجنده
الحاشد اللجب معتزاً بفيله الكبير متجهاً من اليمن ، صوب الشمال .
وما كاد يشرف على مكة حتى غادرها اهلهما . وحين اجتمع الى
شيخ قريش وزعيمه عبد المطلب ، ووضح له الغرض الذي من اجله
اتى ، طلب اليه ان يرد اليه ابله وقال له : دونك البيت .
ولكنه اردفها بكلمته الخالدة التي ظلت تجلجل في مسمع الاجيال :
ان للبيت رباً يحميه !

لم يحفل ابرهة بكل ذلك ولم يكثرث ، وخال ان عبد المطلب
به جنة . ان ثروة الحجيج التي كانت رجاءه اذا تحول الحج الى
قليسه ، وسعة النفوذ والسلطان ، قد اسدلت على نفسه غشاوة جعلته
لا يصيخ لشيء ، جعلته يهجم على بيت ابراهيم ، ذي الاقداس الالهية
كما يهجم الى بيت ادني رجل من العرب انه يصرخ في جنده صرخات
شداد : اضربوه ، ادفعوه ، ولكن الفيل لم يعراي اهتمام لصرخاته
ولم يبداي تألم لضربات السياط وطعنات الرماح والسيوف ، بل ابي
ان يتجه الى البيت ، وكان كلما اداروه الى سواء استخف وسار . ولكن
ابرهة ظل غنيداً جباراً ، مصراً على هدم البيت ، يستحث الجنود
ويوالي فيهم الصرخات ، ولم يفكر في شيء سوى ذلك ، قد شمت
بنفسه كثرة جنوده ، وتعال كبرياؤه ، ولم تصده غير امواج من
الطير ، تغمر السماء كأنها الغمام السود ، تحف من كل جانب ، ثم
توالي قذائفها الجهنمية على رؤوس الجيش ، واذا بابرهة ينظر الى
جيشه فاذا هو جث هامدة بعضها فوق بعض واذا به يدعرو بصق
وفي غضون ذلك ، كان المكيون يقبون جيش ابرهة من الواذ

الجال وشعافها ، اكبروا البيت لانهم رأوه قائماً ينجي الخالق كما
تركوه ورأوا في ارباض مكة وافنائها اجساد الجنود بعضها فوق
بعض . لا ! لا ! اكبروه وقد ذكروا كلمة قالها عبد المطلب :
« ان للبيت رباً يحميه » ! .

اجل ! لقد حمى الله بيته ، فارسل عليهم طيراً ابابيل يحمل كل
طائر بين مخليه ثلاثة احجار مسطور على كل حجر اسم الرمية من الجند
فرح المكيون بهذا الانتصار الذي احرزوه ، ورفعوا رؤوسهم
الى السماء ، واعتبروا انفسهم الابطال الميامين الذين كسبوا الحرب
اجل ! ان جراثيم الجدري فتكت بجيش ابوهة فتكاً ذريعاً ، حتى
ابادته بما نحمد في اعقاب الطير من سجيل مويؤ ، جف في جزيرة
العرب وتساقط عليه .

ومهما يكن من امر ، فقد كان حادث الفيل رائعاً جداً وعظيماً .
ولولم يكن حادث الفيل رائعاً وعظيماً لما جعله العرب تأريخاً
واطلقوا على سنته « عام الفيل » ، وظلوا يؤرخون به حتى الهجرة .
انه حادث صدق وحق له شواهد من الواقع .

ان فترة عام الفيل كانت زاخرة بالحوارق : فيها يوم ميلاد خاتم
الرسل ، يوم غمرت فيه فيوض انوار السماء الارض وبعث الله الملائكة
على الشياطين ترميهم برُجم من السعير يعيلهم الى رماد ، يوم جفت فيه
بحيرة ساوى التي كانت تمخرها اكبر السفن ، وخبث نيران المجوس التي
ما انطفأت ابداً وتصدع ايوان كسرى وتساقطت شرفاته وتبأ الكهان
والسحرة بأن اربعة ملوك عظام عادلين سيؤول اليهم حكم العالم بعد كسرى

هذه لمحة من الحوارق العظيمة التي رافقت ولادة سيد العالم المقبل
وسيد الابطال الذي هز الدنيا فسجدت له وخضعت لمملكته . . .

الفصل الثاني

نشأ محمد فقيراً لا يملك كثيراً من متاع الدنيا سوى تركه ضئيلة خلقها له والده : بركة الامة وخمس من الابل ، وهذه سنة الله في رسله . وقد احتضنته امه بضعة اشهر ، وحين وافتها المنية كفله جده عبد المطلب . ولقد كان عمه حمزة اخاه من الرضاعة .

وكان من شأن قريش ان تعمد باطفالها الى مرضعات من البدو ، وهم يريدون بذلك ان تنشأ اطفالهم على هواء البادية الطلق وسعة الافق ، وتحمل مشاق العيش وقسوة الحياة والفروسية وذلاقة اللسان . وكانت المراضع تفر الى مكة في كل عام مرتين رغبة في الثراء ، ووسيلة للاكتساب ، وكن يرغبن في اطفال الاثرياء ويحببن الرضاعة لهم وينفرن من الفقراء والايتام .

وفي عام ولادة النبي ، جاءت المراضع كعادتهن واخذن يتلقفن اطفال الاثرياء ، وقد حظيت كل مرضعة بما تشتهي الا واحدة وهي حليلة السعدية التي ظلت تنقل من بيت الى بيت ، ومن امرة الى امرة عليها تجد طفلاً ثرياً . ولكنها لم تجد الا الطفل اليتيم محمداً ، تركته اولاً لانه يتيم معوز ، وفي نفسها مضض ، واخيراً ، حين لم تجد طفلاً لها ترضعه بل حين نظرت الى محمد اجتذبت سمة الرائع ، وبهجة الحياة الساطعة فيه واضواء السماء التي تغمره ، فحنت اليه واحتملته وفي نفسها الرجاء . وكانت هذه اول رحلة لمحمد !!!

مهد الله لطفولة النبي افصح قبائل العرب وانبها شأنها واشدها مراساً ولقد تغذت مواهب الطفل وبدأت بشائر العبقريه وآيات

النبوة ، منذ اليوم الذي احتضنته حليلة رخصته الى صدرها ، واخذت
تتم نظرها في حياه . فلما رجعت به في الشهور الارلى الى امه ،
ضربت اليها ان تبقية لديها ، فاجابت آمنة طلبها رغبة في ان ينشأ
محمد في نسيم البادية الطلق حتى يستكمل طفولته في ربوعها .
وقد استكمل حواين كاملين رضيعاً ، حتى اشتد ساعده واشرق
بنضارة الطفولة وورنق الحياة .

وما اسرع ما كانت تمر الايام والليالي بهذا الطفل الميمون ، تمر
بسرعة البرق ، انه لميمون حقاً . هذا هو البدر يدنو آمنه حتى ينير الطريق
كلما مشى ، وهذه الطرقات تخضر تحت قدميه وتزدهر ، وهذه المواشي
تخفص صوتها لدى سماع صوته ، وتحنى رؤوسها .

شاهدت حليلة وقومها كثيراً من امثال هذه الخوارق تحيط
بالطفل فكانوا يزدادون تعلقاً به ، والحاحاً في البقاء لديهم ، ولكم توسلت
حليلة الى آمنة بعد الفطام ان تبقية لديها . ولقد سر آمنة ان ترى حليلة
تتعلق بوليدها ، هذا التعلق الذي لم يعهد في المراضع من قبل ، سرها ذلك
ورضيت ان تبقية لديها ، فرجعت حليلة بمحمد رجوع القائد المنتصر
بانفس التيجان ، واثمن العروش .

ياله من طفل غريب ! تحفل به الآيات والمعجزات ، وتدل على
جلال مستقبله في الغد العظيم ...

* * *

ما كانت الافدار لتدع الطمأنينة بقرب محمد تستقر الى غير نهاية
في قلب حليلة ، على شدة الحاحها في بقاءه لديها ورغبته في هذا البقاء . ربيتها
كان ذات يوم في فناء المنازل هو ومسروح ابن حليلة تربه ، واذا بملكين
كريمين يلبسان ثوبه الانسان ، يدنوان برفق من الطفل الميمون

محمد ، ويتناولانه بكل حنان وبر ، ويشقان صدره الشريف .
ويعسلان قلبه في طست من الذهب ، يتفجر ماؤه كأشعة الشمس
وبما جعل الطفل مسروراً بعدو خائفاً مضطرباً الى امه حليلة صارخاً
اماه ، اماه ، هلمي الى اخي القريشي هلمي . فذعرت امه لمرآه
وادركت ان وراءه امرأ ، فسارعت حيث الطفل محمد ، فاذا هو
واقف بمتعة ، فضمته الى صدرها ضمّاً شديداً لتهدئ روعه وتنطلق
به الى خيمتها . وحين حدثها بما جرى ، ملاء نفسها الخوف عليه
وخشيت ان يصاب الطفل لديها بمكرره فيحملته الى امه وهو لم
يتجاوز الرابعة من عمره . وبعد عامين فكرت آمنة ان ترحل بالطفل
رحلة ثانية ، وان تزوره اخواله بني النجار . لعلها كانت تريد من
زيارة المدينة ان تبعث ذكرياتها مع ذلك الدفين الحبيب عبد الله
وان تعرفه بعشيرة له بها اسد اواصر القربى . ولعل الاقدار ايضاً
كانت تريد ان تضع في نفس هذا الطفل نواة حب يثرب التي كانت موطن
هجرته ومستقر انصاره .

انها يثرب التي يضم ثراها رمس ابيه ، انها البلدة النضرة التي
تغشاها النخيل ، وتتفجر في اطرافها العيون ، ويندى من رياحينها
النسيم ، انه يتقلب فيها من مرج الى مرج ، ومن حديقة الى اخرى
يسير بين حفاوة اخواله ، وحنان امه ، ورعاية خادمتها ام ايمن .
ها هي آمنة تترك المدينة وقد ثارت في نفسها الاحزان ، واشغلتها
الذكريات ، وهدت من كيائها ما هدت ، حتى انها لم تكد تصل
الى الابواء ، حتى كانت على غير حال الاحياء تحتضر ويشد بها
الاحتضار ثم تلفظ انفاسها وهي شاخصة في وجه طفلها الحبيب ،
وتنظر من طرف خفي الى ام ايمن كأنها تدعوه الى الاقدار وكان

روحها الطهور ابت ان تنأى بعيداً عن عبد الله . ولعل ما كانت ترى من ارهاصات تصحب طفلها ، وامارات من ارواح السماء تبدو بين يديه وتحتمي ، جعلتها تلفظ انفاسها راضية مطمئنة ، راضية بصورها ومطمئنة على مستقبل طفلها اليتيم .

تلفظ انفاسها بين مدامع ام ايمن الغامرة ونظرات طفلها الوقور الذي يبدو انه يفهم مصير امه ويدرك عظم المصاب .
ضمته ام ايمن الى صدرها . واخذت تسرى عنه همومه واحزانه وتحفف عنه من وطأة اليتيم التي كسرت جناحيه .

حقاً ان المصاب جلجل ولكن ، هذا الجد الوقور ، هذا الجد الحنون ، عبد المطلب ، الذي لم يدع لاشباح اليتيم السوداء منفذاً الى قلب هذا الطفل ، بل الذي يضمه الى صدره ويصحه في كل موطن ينتقل اليه ، يأخذ في التسرية عنه ، يداعبه حيناً ويحادثه آخر ، ويقبل عليه ما بين آونة واخرى بما يشتهي من طيب عيش .
نعم ، نعم ، الطفل في ظلال جده ما شاء ان ينعم ، ولم يشعر بفداحة اليتيم وقسوة الدهر ، وكان الله الذي تولى تأديبه ورعايته لم يشأ ان يدعه يقسو عليه الدهر ويشتط في ايلامه ويوغل في التنكر له لا ! لا ! ان رعاية الله فوق كل رعاية . وان تأديب الله اجل من كل تأديب ، ها هو يمهده في قلب ابي طالب سبيل الحنان والبر ويقيم له في ابعد اعماقه محراب الاكبار والاجلال ، اذ لم تكده تنفض الحياة يديها من عبد المطلب . حتى كان الطفل في غمامة من الرضي ، تغمره بانوارها واقداسها . وحتى كانت راحتا عمه ابي طالب تحيطانه بما يشتهي ، وتميئان له كل مسرة وغبطة ، فلم يفقد الطفل

من شيء بعد ذلك الا وجه جده الشيخ .

* * *

انك ترى هذا العم الحديب لم يدع فرصة تمر سدى من حياة
الطفل ، بل كان شديد العناية به وكان اكبر ما يعنى به ، ان يملأ نفسه
بالبطولة والشجاعة وان يجعل منه فارساً قادراً على ركوب الخيل .
وكم كان يقص عليه في ليالي الشتاء الطويلة اقايص التيجار
الذين يقطعون الفيافي ، ويركبون الأخطار ، ويحملون في اوجه
المنيايات فتاً على الامجاد وهياماً بالثراء ورفاهة العيش ، يقص عليه
احاديث بني مخزوم وغرائب بني امية ومجائب بني اسد مؤكداً له
انهم لولا مغامراتهم وجمعهم للثراء لجهلوا لما كانوا زعماء ولا وجهاء .
من اجل ذلك لم يوجه عمه الى الكتابة بل عاش تاجراً مغامراً وان
كان اميالا يحسن القراءة ولا الكتابة .

وكم كان يمر في رحلاته بأقوام كثيرين ، وكم كان يسمع لغات
شتى ويشاهد محلاً متباينة .

وفي الثانية عشر من عمره حين اراد ان يدعه عمه في مكة ويذهب
بتجارته الى الشام ، ابي محمد ان يدعه ، ورجاه ان يستصحبه ، وشده
اليه ، فحنى عمه عليه وضمه وطمأنه .

ها هو مرح يستقبل الصحراء بوجه طلق ويستنشق بملء رئتيه
نسيمها الفواح ، ويصغي الى حدى الحداة وهو مطلق الروح في عالم
الصحراء اللانهائي ، والسماء الفسيحة الاكثاف ، المتباعدة الافلاك
وأماله الكبار تتطلق هناك وهناك في تلك الابعاد اللانهائية حيث
الاقداس والنور ، حيث العظمة والجلال ، حيث العزة الالهية التي
ليس وراءها عزة .

هذا الغمام يظلمه ، وهذه افنان الاشجار والدوحات تنهصر عليه
حناناً . وهذه النسائم تعبق بين يديه بشتى العبير . وهذا بحيرة
الراهب يلفت نظره كل ذلك . ويأتي الى زعماء القافلة دهشاً ،
يدعوهم جميعاً الى وليمة . وما كان من عادته ان يدعوهم . ان
مرأ عظيماً ارقه الليالي الطوال ، واسهده ، وان نبياً كان
ينتظره بقلب يذوب حناناً وجباً ، الفاء بين يديه تسوقه اليه الافدار
يذهب رجال القافلة ويدعون محمداً حول متاعهم وهم يحفلون انه
المراد من كل هذه الوليمة . وهذا بحيرة يحملق عينيه ويقول :
اين ؟ اين ؟ ذلك الصبي ؟

عجبوا وقالوا : تركناه عند متاعنا .

هلموا هلموا به الي . يقبل محمد ، فلا يعنى باحد سواء ويقتضب
كل حديث ان يتسرب اليه من احد . ويصده صداً وهو بهج
مسرور مقبل بروحه ونفسه على هذا الطفل . تكاد روحه ان تلتهمه
يستوحى فيه نور السماء ، ويستلهم فيه اقداس الحق ، انه رأى
بشائر النبوة تطفح في حياه ، وتتلأأ في مقلتيه الواسعتين السوداوين
وعلى ثغره تشرق ابتسامة الملاك .

* * *

هذا خطيب مفوه يدوي بيانه وهو على سنام بعيره ، ويشير
بمخصرته تجاه الجموع الغفيرة ، كأنما يستعين بلامح وجهه ، وحركات
يديه ، وتقلب مقلتيه ، ليوضح ما يريد ويركزه ، وذاك شاعريوقع
قصائده ويرتل اناشيده ، وهنا وهناك تجار يقلبون سلهم ويعرضونها
على المتجولين والمبتاعين وبين هؤلاء هؤلاء اناس يجثون في فحلهم

المختلفة ، ويفاخرون بآلهتهم ، ومحمد يحول بين هؤلاء ، وينعم نظره
في أولئك ، ثم يستأنف نظره الى السماء ، كأنما ينتظر شيئاً .
ذاك هو سوق عكاظ !!! .

* * *

انك ترى شباب مكة يلوحون بسيوفهم ويضربون بها صدر
الفضاء ، ويرفعون بارماهم الى السماء ، كأنما يعلنون بذلك عن
بطولتهم . وهذا محمد وهو اشداهم بطولة واكبرهم شجاعة ، يأبى
ان يتظاهر هذا التظاهر ، وكأنما ادرك بفطرته وبكنوز روحه
انها حرب بين امة واحدة لا شرف فيها . ولولا خشية العار لما وقف
ينبل لعمه ويسلمه ، مثاقلاً ، نبلة بعد نبلة ، في حرب عوان تصرمت
اربعة سنون ، ولم تنصرم الا بدم الضحايا وتقديم الفداء .

* * *

ولم تفت رعي الماشية محمداً وهو في شرح الشباب لم يتجاوز الثامنة
عشر . زاوها كما زاوها الرسل من قبل ، ولكنه لم يجد فيها ما يحول
بين جانحيه من مطامع عظام ، من اجل ذلك آثر التجارة عليها
حتى عرف بين قومه بالامين .

وانك اذا رميت بطرفك في ذلك الوادي الجديب وهو متطامن
بين شموخ الجبال ، ذلك الوادي الذي لم يجد ساكنوه سوى ماء
السماء المجموع في صهاريجهم وسوى بئر اممعايل التي فجرها الله بين
قدميه تفجيراً ، انه هو وادي مكة ، البلد الامين . وقد ترامت
قصور التجار واكواخ الفقراء على الجبال ، وفي وسط الوادي ،
يغمر الجميع بيت الله بانواره وهي تلف به التفاف السوار بالمعصم

من هذا البلد الحرام كانت تنهب الصحراء رحلتا قريش رحلة الشتاء والصيف .

وفيه بيت ابراهيم الخفيف الذي غزته الوثنية بأصنامها واقامتها في صدره تبلغ الثلاثئة والستين . هذا هبل اكبر آفتهم ، وتلك مناة ، وهاتيك العزى ، وبينهما اللات ، حجارة اقيم بعضها الى جانب بعض يعبدونها من دون الله كما يعبدون الثراء .

* * *

مكة هي البلد التجاري ، واهلها لا يحترفون سوى التجارة . حتى النساء كن يسيرون القوافل ويتخذن الرجال اجراء لتجارتهن . وهذه خديجة الارملة الثرية ، التي افضت الى العقد الرابع ، كم كانت تطمح ان تجد لقوافلها اعظم شباب مكة قوة وجلداً ، واكثرهم امانة وحصافة ، وانبلهم غاية وملة واقداراً .

لم تجد سوى « الامين » ، ومن سواه يستطيع ان يحل عقدة قلبها وان يستهوي نفسها ، وان يمتلك من اعجابها وتقديرها ما يمتلكه ؟ ها هو ينهب الصحراء ، وميسرة غلامها يرقب الغنائم ، وهي تظله من الرمضاء ووهج الشمس المحرق ، وكيف تمر السائم بالقافلة مرأً ، حتى اذا افضت الى محمد انتلبت نشراً خسرأً يعقب بالأريج . انها الصحراء ! مبعث الاحلام ، سماء صافية وسبعة ونجوم زهراء ، تعد الرمال عدأً ولا تحصيها ، ورمال فوق رمال ، وكثبان فوق كثبان ، وبين واد وواد جبال تضرب السماء بقممها وآفاق وسهوب ، هنا الشعر ، هنا الاحلام ، ولكن « الامين » لم يكن بالشاعر وما ينبغي له .

ان كنوزاً من الروح تزخر بين جانحيه ، واسراراً وراء اسرار

ثمور في ابعاد نفسه المحجبة بالغيوب ، انها تهاويل الابد الكتوم تغشاها
بغموض وابهام هو بعد حين يكون من الاقدار مأتى كل مثل
الانسانية وجلالها وغذاؤها الروحي .

* * *

سهدت خديجة بعد ان ضربت الصحراء قافلتها بأخفافها ، ولم
كانت تسهد في لياليها السابقات ، ولكنها في هذه المرة تغمرها احلام
واطياف يشرقها طيف هذا الشاب الامين . لم تكن المادة شغلها في
هذه المرة ولكن شغلها ما رأت من سميت وخلق ونظر بعيد
وعذوبة منطق وكال خلق وقد اجتمعت كلها في شخص واحد .
ثابت القافلة وكانت الارباع وفيرة ، وقدمت اليها الطرف
والهدايا ، واعجبها ولذ لها حديث مبسرة عن محمد وقد استعدته
مراراً واصاغت اليه باذنين واعيتين تحصيه احصاءاً .

اعجبها ولذ لها ، وهنا برمت امرها في نفسها ان تتخذ محمداً بعلًا .
- لماذا لا تتخذ زوجاً يا محمد ؟

- القلة ! القلة !

- ارأيت ان اناك المال والحسب والجمال ؟ !

- من ؟

- خديجة ! خديجة ! هلم فاخطبها !!

- اهي ترضى ؟

- اجل ! اجل ! هلم سارع .

ونجم من ذلك الحديث الذي دار بين محمد وتلك الرسيطة ، اجتماع
كبير بين رجال مكة في دار خويلد تم فيه عقد قران محمد على خديجة
وخطب الجمع ابو طالب فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا من ولد ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل
لنا بيتاً محجوجاً وبلداً حراماً وجعلنا الحكم على الناس . ثم ان
محمد بن عبد الله ابن اخي ، من لا يوازن فيه فتى من قريش الا رجح
عليه براً وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً ونبلاً وان كان في المال قُلٌّ
فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد
رغبة ولها فيه مثل ذلك وما احببتم من الصداق فعلي » .



الفصل الثالث

لقد كانت مزاولة التجارة من اسباب الثراء في مكة ، ولقد اصبح محمد رب اسرة كبيرة وله من الذرية : زينب ورقية وفاطمة وام كلثوم ، وكان يزاول التجارة !

وقد كان ابيض الوجه مشرباً بحمرة ، عريض المنكبين واسع العينين ، اذا مشى فكأنما يتعذر من صلب ، ازج الحاجبين ، اسود الشعر ولم يكن في كسوته مسرفاً بل كان يلبس من الثياب اخشعها يلبس ثوباً من الصوف ، ويتعل حذاء من الجلد ، وله عمامة بيضاء وكان يلبس ما يهدي اليه الا ان يكون ناعماً فيهديه .

وكانت اخلاقه فريدة من نوعها ، يجذب على الفقراء والاطفال ويؤنسهم جهده ويوفر لهم اسباب السعادة . وكان قريباً من كل قلب ، تراه ابدأً باسمياً ، حلو الحديث ، منفقاً لكل مال يصل الى يديه ، لا يدخر شيئاً ، كثير الصمت ، وفيماً ، رقلها يستطيع ان يجاريه انسان في وفائه . تلك خديجة مضت ، وتقلب النبي في تنظيم الدولة وتنظيم الامة ، واتخذ غير واحدة حليلة لاغراضه الكبيرة السامية ، ولكنه لم ينس خديجة قط ، خديجة الكهله التي كان يؤثرها على كل نسائه . ولا ريب ان عناية الاقدار ابدأً تبدو لك جليلة حين تلقي ادنى نظرة في تاريخ محمد ، هذا بيت ابراهيم يتداعى ، وهذه قریش تجمع المال الحلال لاسادته من جديد ، وهؤلاء هم اشرافها وذوو المسكاته فيها يكادون يمتشقون السيوف ويحبلون ساحة المسجد بركة من الدم لان كل زعيم يؤثر ان يضع حجر ابراهيم الاسود بيده .

ولولا ان ذوي الرأي فرضوا ان يحكموا اول داخل ، لما كان
سلام بين اولئك القوم .

وكانت الاقدار الالهية تحيط بمحمدآ وتسوقه الى موطن الخلاف ،
لانها آثرت ان لا يضع هذا الحजर بعد ابراهيم الا محمد بن عبد الله !
وما كاذ يطل على القوم من باب المسجد حتى تنادوا : هذا
الامين وكلنا نرضاه!!

بسط محمد الرداء وامسكه كل الزعماء ورفعوه الى موطنه من
الركن : وهنا مد يده ووضعه في مكانه فاصبح مقدساً لان نبين
كريمين وضعاه في هذا الموضع من الكعبة .

وهكذا بدت حكمة النبوة ودلائل الحق تتضح في سيرته ، فقد
استطاع في هذا الموقف ان يرضي الجميع وان ينيل كل واحد من
الزعماء ما يشتهي من الشرف والسؤدد واليمن .

وكانت العزلة احب شيء اليه ، يؤثرها حتى على الاجتماع باهله
وبنيه ، ولعل خديجة كانت تتساءل في نفسها لماذا يقضي محمد الليالي
الطوال ذوات العدد ، وهو في كهف حراء وحيداً ليس له من
مؤنس او صاحب !

لا ! لا ! لم يكن وحيداً يا خديجة ، السماء تناجيه ، والملائكة
تحيمه ، والاشجار والاحجار تسلم عليه . لم يكن كاهناً حتى ترتاد
ساحته الجنة ، ولم يكن شاعراً او ساهراً حتى تغطي عليه الحيات
والاوهام وتحف به الالبسة .

وقد اضنته العزلات واخواه السهد والأرق والحواطر التي
كانت تتراوح في نفسه وترتاد اعماق ضميره ، ها هي قریش كلما
رأته عجبت حاله ، لماذا هذا التجافي عن الناس ؟ اين اشراق وجهه

اين انسه وبهيجته ، اين تضارته واجتماعه ؟!...
لماذا تحوط به هذه الافكار والبلابل وعلام تدور في نفسه
الهاجس ؟ ! ايدور في خلد هم ان محمداً الضاوي الهزيل مستصح بين
يديه كنوز بلاد العرب وبمالكهم بل كنوز العالم وبمالكه .
ان ذلك ! ان ذلك سيكون !

* * *

كانت السماء صافية والنجوم تتقد على اطراف الافق والقمر
يغمر الغار باشعته الوهاجة والنبي ينظر الى الصحراء وتجاويف
الاودية من بعيد ، وتارة ينعم نظره في السماء . ولعله كان يطول به
المقام في الغار فيشرف على واد او يتسلق قمة او ينحدر ، واذا ملئ
ذلك كله يعود الى غاره ، ويأخذ في عبادة الفكر وطول النظر ،
والتفكير في خلق هذا العالم ، وعظمة خالقه وجلال قدرته .
ها هو ذا يتقد الغار كأنه شعلة من النور ، او كأنما طلعت
الشمس من اعماقه ، وها هي اجنحة الملاك جبريل تملأ الغار ببواقيتها
ولآلئها واضوائها وظلالها الذهبية .

صوت رهيب ينبعث من فم الملاك ، بعد ان يضم محمداً الى صدره
ويضغط عليه : اقرأ . . . اقرأ . . .

— ما انا بقاريء صوت ينبعث من اعماق قلب محمد
ورجفة خفيفة مطمئنة تمر على قلبه .

— اقرأ ! اقرأ . . .

— ما انا بقاريء . . . وهكذا يعيدها مرة ثانيةً والملاك يجذبه
اليه ويطلقه وهو يقول للمرة الثالثة :

— « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ،
اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »
يخترقي الملاك من الغار ويبدو على اطراف السحب ، تنقد
باجنحته وتضيء السماء ، ويسمعه محمد يقول له وهو صاعد :
انت رسول الله ! انت رسول الله !

ولم يكد جبريل تخفيه ابعاد الكون ويغيب في متناهي الآفاق ،
حتى يتعامل محمد على نفسه ، وقد طغت عليه الافكار ، وناه تحت
اوقارها فلا يكاد يصل الى زوجه الحبيبة حتى ينادي : زملوني !
زملوني ! ولم تكد ترمله زوجه وتحنو عليه ، حتى يخترق اذنيه صوت
الملاك يناديه بقول الله : يا ايها المدثر ، ثم فأنذر ، وربك فكبر ...
استبشرت خديجة واحست رباً يخالط ظمأ المعرفة الذي كان
يجز من نفسها كلما شاهدت الاسرار تحيط بزوجه ، رباً غمرها ،
هذا هو الملاك وهذه بشار النبوة فهي لم تحش عليه الجثة ولم تحف
عليه ثثرة الكهان بل تقول له حين خال ذلك الذي لم به ان يكون
من الجن : « والذي نفسي بيده لتصبحن رسول امتك ورسول العالم !
وذهبت به الى ابن عمها ورقة بن نوفل وقصت عليه حديثه فطمأنه
ورقة وقال له : هذا هو الناموس الاعظم الذي نزل على موسى :
يا ليتني اكون حياً حين يخرجك قومك .

فقال له محمد : او مخرجي هم ؟

فاجابه ورقة : نعم ، انه لم يجيء رجل قط بمثل ما جئت به الا
عودي ، ولئن يدركني يومك لانصرنك نصراً موزراً .

ورقة هذا هو الذي تنصر في الجاهلية وكان يكتب من الانجيل
بالعبرانية ما شاء ان يكتب ، وكان اذ ذاك شيخاً كبيراً قد عمي .

مرت بعد ذلك ايام واشهر بل مرت اعوام ثلاث ولم يجتمع ملاك
الوحي الى محمد ، وظل محمد جد مشتاق الى سماع ذلك الصوت الالهي
وجد تواق الى غار حراء يرتاده ويمعن في ارتياده ، ويتأمل في السماء
وينعم نظره فيها ، ويبطل التفكير ، حتى ظن انه قلاه ربه ، ولكن
الله لم يقله وهذه آياته تعلن ذلك :

« والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ،
وللاخرة خير لك من الاولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ،
الم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فاغنى »
ونزل بعد ذلك الأمر باعلان الدعوة والجهربها وانذار قومه
« وانذر عشيرتاك الاقربين » .

هذه صخرة الصفا ، يصعد اليها ، ينادي قومه معلناً لهم رسالة
ربه وهو على اتم ما يكون الاستعداد لنضال الوثنية ، لنضال التقاليد
ولنضال النحل البالية ، على اتم ما يكون استعداداً وثقة بالنصر من
الله وايماناً بذبوع الدعوة بين الامم .

* * *

وكان اول المسلمين من النساء زوجه خديجة ومن الولدان علي بن
ابي طالب ، ومن الموالي زيد بن حارثة متبناه ومن الرجال ابوبكر
ولم يكن ابوبكر في الجاهلية بالمغمور او المجبول بل كان نابه
الذكر جم الاحترام والتقدير ، معروفاً في القبائل بحسن اخلاقه
وسمو منزلته ، فلم يكذب مؤمن بما جاء به صديقه الامين محمد حتى شرع
يؤدي واجب الرسالة ويدعو الناس الى الاسلام وعلى يديه اسلم ملاء
من قريش : اسلم عثمان الذي اصبح زوجاً لرقية ابنة النبي ، وعبد

الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص والزبير بن العوام وطلحة
وتبع هؤلاء ابو عبيدة وسعيد وعبد الله وابن مسعود .
والرسالة الالهية ليس في مقدور البشر صدها او القضاء عليها فها انت
تري ان ذوي قربى محمد كانوا من الداعين واشدهم محاربة للدعوة
وصداً لها ، بما جعله يذكر تلك الكلمات التي قصها عليه ورقة حين
اعلنه بهذا المصير ، ومع ذلك لم يستطيعوا القضاء على الدعوة
وتعطيل الرسالة .

* * *

واذا كانت قريش ائمة البطون الكثيرة الزعماء والرؤساء تجد
نفسها حيال عقائدها واثباتها وتقاليدها مندفعة الى نصرتها ، والدود
عنها ، والموت في سبيلها ، فهل تكون اقل من بني هاشم اقرباء محمد
استنكارا لما جاء به ودفعاً لدعوته وعنادا عليها وتشهيراً بها ؟
اود منهم مؤامرة وكيد ؟
والرسالة ابدا نضال وحرب ، وأخذ ورد ، وأرار يشتعل من دونه
ارار ، ولظى من الاحقاد يلتهب في الصدور ويوغر في النفوس ، انهم
يشهرون به في كل ناد وينسبونه مرة الى الشعر ، وطورا الى الجنون
وحيناً الى الكهانة ، ولم يكف كفوا من بئس ائمتهم ولم يتورعوا ان
يصموه في كل مكان وان يلحقوا به الاذى يتصدوا له في الطرقات .
واشد ما كان يدهشهم يأخذ بمجامع قلوبهم انه على كثرة اذاهم
ونقمتهم يروونه ماضياً في دعوته مثابراً عليها ثابتاً ثبوت الجبال ،
فاعماً بالاذى ، مستريحاً الى المجاعة والكبد ضاحكاً لكل ما يلقونه
به ، ولم كانت الدهشة كبيرة ، والعجب اكبر ، حين عرضوا عليه
الملك ، حين عرضوا عليه الزعامة عليهم ، حين عرضوا عليه جل

اموالهم ، حين عرضوا عليه كل ما يشتهي في سبيل ان يتوك دعوته
ويدع رسالته ، ويرضى بما هم عليه من عبادة او ثان وتقاليد ...
وكم كانت الدهشة كبيرة والعجب اكبر حين قال لهم «والله لو
وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر
ما تركته حتى يظهره الله او اهلك دونه !» ..!

هكذا يخاطب عمه وهكذا يخاطب قومه . انها الرسالة الالهية ،
انه الحق ، انه الثبات من الله ، انه قول الله ، ومن اصدق من الله قيلاً ؟!
ولشد ما كانت تؤلم قريش وتقض مضجعهم وقفات محمد الجبارة
لدى ارهاقهم وبطشهم ، لشد ما كانت تثير في نفوسهم الوان الهواجس
والافكار ، فيلجأون الى طلب الخوارق والمعجزات ، يريدون سلباً
ينتصب من السماء الى الارض ليجتمعوا الى الله ويسألونه اذا كان
محمد رسولاً نبياً ، او ينزل الله الملائكة اليهم ارسالاً تقسم لهم من
الايمان اخرجها حتى يصدقوا انه رسول ، ولماذا لا يفجر الانهار
ويخرج من الصحراء الحداثق والغابات لماذا ؟ ... لماذا ؟ ...

يا ويحهم ، نسوا ان الخوارق ان شاهدها قوم جعدها آخرون
لم يشاهدوها ، يا ويحهم ذهلوا ان هذه الخوارق هي بطفولة الانسانية
اخلق ، وبلوثة الاجيال المأفونة اجدر ، انه كتاب من السماء فيه
معجزة العلم ومعجزة العقل : آيات بينات طافحة بالمعجزات ، زاخرة
بالخوارق ، في كل آية حكمة ، وفي كل كلمة بيان ، اوليس في
امكانهم وهم اهل اللسن والفصاحة وارباب البلاغة ، فيهم فحول الشعراء
ومصاقع الخطباء ، وفيهم الزعماء ، ان يأتوا بمثله ؟! . هاهو ذا يطلب اليهم
جميعاً ان لم يؤمنوا بهذا الكتاب ولم يصدقوا انه من الله الخلاق ان يأتوا بمثله

او بسورة او ببضع آيات ، اجل عجزوا عن ذلك ولكن عجزهم لم يزدهم
الا عناداً واستكباراً وطغياناً وقرداً .

وكم حاولت قريش وانصار قريش ان تقضى على دعوة محمد
بالقضاء عليه ، ولكن هناك ابو طالب وحزبه ، هنالك فريق من
بني هاشم ، من قوم النبي يأبون ان ينال بأذى وهم احياء وان كانوا
على غير دينه لأن للدم حقاً وللقرابة سلطاناً .

هذا ابو جهل انفرد بالنبي مرة فهاجمه بكل محرجة من القول ،
وغادره وهو على اشد ما يكون الانكسار . ولكن لم يلبث غير
قليل حتى تسامع همه حمزه واخوه من الرضاع ما فعل ابو جهل ،
فتوكله بين قومه ، مستكبراً مستعلياً ، فاذا هو يهجم عليه ويشج
رأسه بقوسه قائلاً : « اتشتم محمدًا وانا على دينه ؟ وحاول رجال من
بني مخزوم ان ينتصروا لابي جهل ولكنه ادرك مغبة الامر فأقعدهم
قائلاً : « اني شتمت ابن اخي ونلت منه » .

ومها يكن من امر فان بني هاشم وجلهم غير مسلمين قلما كانوا
يستطيعون ان يمنعوا عنه كل الوان الاذى وبالاخرى الاذى الذي كان
يصل الى المسلمين الذين لم تكن لهم عشائر تندود عنهم وتحميمهم
كالمتضعفين والموالي . فهذه سمية يطعنها ابو لهب طعنة نجلاء ويبقر
بطونها ويرديها قتيلاً لا شيء سوى انها آمنت ، وهذا بلال يطرح
ارضاً على الرمضاء المحرقة وتوضع على صدره الصخور وهو ينادي :
أحد ! أحد !

وهكذا تفاقم البلاء وعظم الداء مما جعلهم يستأذنون رسول الله
في الهجرة الى الحبشة فان بها ملكاً رحيماً حفيماً بالضعيف كريماً بله
كراهية النجاشي لقريش الوثنية منذ احداث الفيل .

وقد ثارت ثائرة قريش واغتمهم حين رأوا الكرامة تحيط بالمهاجرين المسلمين في دار هجرتهم من النجاشي ، مما شد في عضدهم وجعلهم يستأنفون الهجرة مرة ثانية بعدد كبير يبلغ الثلاثة والثمانين رجلاً وثلاثة عشر امرأة بعد ان كانت الهجرة الاولى لا تتجاوز عدد نساء الثانية الا قليلاً .

اجل ! ثارت ثائرة قريش ولم تتم عن عقد المؤامرات ، فها هي تجمع التحف والطرف وتبعثها الى نجاشي الحبشة في صحبة رجال من ذوي الدهاء والكيد ليفتنوه ويسلطوه على اصحاب محمد ، ولكنهم ثابوا بالخذلان يأكلون الرغام ويتجرعون الماء الاجاج ، فان صاحب الحبشة اغلظ لهم في الرد ، حين ادرك غرضهم السيئ .

وقد اهم قريش هذا الامر واعجلهم على الانتقام والمخاطرة بالقضاء على محمد مهايكن الحال . خافوا اشد الخوف ان تفلت الفرصة من ايديهم وان يستقوي محمد بن يسلم ويشدد ، ففقدوا اجتماعاً فيما بينهم لاغتياله وانتدبوا اخسئهم نفساً ، واقسامهم قلباً واشدهم شراسة ، واقوامهم ساعداً واعنفهم خصومة ، انتدبوا عمر لاغتيال محمد والقضاء عليه ، فلبى الدعوة وامتشق حسامه وابى الا ان يصصره امام الجماهير لان عمر ما اعتاد الخوف ولا الاستخفاء ! ذهب مسرعاً مستعجلاً يبلع الارض بقدميه ويطويها طياً شاهراً حسامه غير معتقد بقوة في الارض تحول بينه وبين محمد .

— اليك اليك يا ابن الخطاب ، الله اكبر ! الله اكبر ! ...

* * *

كان نعيم يتردد حيال دار الارقم ابن ابي الارقم في الصفا حيث المسلمون يجتمعون بالنبي ويتلقون عنه مثل الاسلام وتعاليمه واذا

بعمر وهو عجل في خطوة يعثر بنعيم .
يرى نعيم الشرر يتقد في عينيه ودم الغضب يكاد يطفئ من وجهه
فيفهم ما يريد . -

- مهلاً ! مهلاً ! الى اين يا عمر ؟
- الى حيث محمد لا قتله !
- دع عنك محمد واصلح بيتك .
- ويحك ! ويحك ! ما تقول ؟ ... !
- ان اختك قد صأت !
- احقاً ما تقول ؟
- اذهب تجد صدق ما اقول !

* * *

تدور الارض والفضاء بعمر وتسود الدنيا في وجهه ، وتضيق به
فما تسع خطوه فيكر الى بيت اخته غضوباً ساخطاً يريد البطش
والفتك ويطرق الباب حتى يكاد ان يحطمه ، فلا يجد اسراعاً وكأنا
يسمع همس التلاوة يلج الى اذنيه فيزيده غضباً علي غضب ، ويجعل
يضرب الباب بقدميه حتى ليكاد ان يزلزله زلزالاً .

وما كاد يرى زوج اخته حتى ينقض عليه انقضاض الصاعقة
ويشده من تلايبه شداً عنيفاً :

- ما هذه الكلمات التي كنت اسمعها وما هذه الهينة ؟

- لا شيء يا عمر !

- لا شيء ؟ ! ويطرعه على الارض وينهال عليه لكما .

فتمض فاطمة ابنة الخطاب لترده عنه فيلقي عليها الشر والهب
ويضربها على وجهها ضربة تشبها شجاً عنيفاً ويصرخ في وجهها قائلاً :
- وانتِ ايضاً صبات ؟

ان عمر على شدة بطشه وهوله وقوته وجبروته ل يبدو ضئيلاً جداً
امام قوة الايمان ، الايمان الذي دفع هذين الضعيفين الى الثبات
وجعلها يصرخان في وجهه ويقولان : اجل ! اسلمنا والحمد لله .

هذا الايمان الذي جعل عمر القوي الشديد يتخاذل مستضعفاً
ويسكن سكون البركان بعد ثورته والاعصار بعد شدته ، يسكن قائلاً
- اين هذه الصحيفة التي كنتم تقرأون ؟

والتفت فوجدها على الارض فانحنى وما كاد يمسكها حتى صرخت
اخته دعها . دعها . انه كلام الله لا يمسه الا المطهرون .
وهنا يتوضأ عمر ويتلو الآيات :

« طه ! ما انزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى ،
تنزيلاً لمن خلق الارض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ،
له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى ،
وان تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى ، الله لا اله الا هو ، له
الاسماء الحسنى ، وهل اناك حديث موسى ، اذ رأى نارا فقال لأهله
امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى .
فلما اتاها نودي يا موسى ، اني انا ربك فاخلع نعليك انك بلواد المقدس
طوى ، وانا اخترتك فاستمع لما يوحى ، اني انا الله ، لا اله الا انا
فاعبدني ، واقم الصلاة لذكري ، ان الساعة آتية اكاد اخفيها ،
لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها

وانتبع هواه فتودى .

وما كاد ينتهي حتى بدت بشائر الايمان تلوح على وجهه والتفت اليهم قائلاً : اين محمد ؟ اريد ان اسلم .
ثم رجع ادراجه وذهب الى دار الارقم وطرقه منادياً . — تخوف المسلمون من صوت عمر وأبوا ان يفتحوا له الباب وقد شاهدوا بيده السيف من خصاصه ، ولكن البطل الهاشمي حمزة بن عبدالمطلب يقول : دعوه يدخل : ان اراد خيراً قبلناه وان اراد شراً قتلناه بسيفه .

* * *

يدخل عمر والحوف يملأ قلوب المسلمين حذراً على رسول الله وخشية اغتياله . ولكن النبي ، وهو البطل الشجاع الصنديد ، ينهض في وجهه مستقبلاً ويشده اليه قائلاً : اين انت يا عمر ؟!
قال اتيت يا رسول الله مسلماً : لا اله الا الله ، محمد رسول الله . فتوتفع اصوات المسلمين من دار الارقم بالتكبير : الله اكبر ، الله اكبر ، فتودد صداها بطاح مكة وارجاؤها فتسقط في آذان قريش وهي في دار ندوتها !

ويخرج المسلمون ، وعمر شاهر سيفه ، الى المسجد ، يعلنون صلاتهم بجانب حمزة لأول مرة . —
الله اكبر !

ما اشبهك يا عمر بالقديس بولس ! ...



الفصل الرابع

لم تجد قريش بعد اسلام حمزة ما اقض مضجعها واسهر ليلها
وافجعها في احلامها الا اسلام عمر ، فقد كان معروفاً بينهم بقوة الاسر
وشدة الجانب والبطولة والجهر الصارح بما يدين به غير خائف ولا وجل .
والنبي لم يدع لقريش من تقاليد الالهة ولا من آلهة الانفال
منها كل النيل وهزيء بها وبعبادتها .

وكم كانت تؤلمها تلك الآيات التي تقرر الآلهة وتنذر عابديها
في سواء الجحيم ، كم كان تؤلمها !

وانك لتجد العجب حين تتغافل قريش وتود ان تجد شيئاً من
ثناء يتناول كبريات آلهتها حين تقول لمحمد : هذه اللات والعزى وهذه
مناة اكبر آلهتنا ، فما رأيك فيها ، تحاول استدراجه الى امتدادها
والابقاء عليها فيتركهم ولا يرد عليهم ثم يأتي في اليوم الثاني واذا
هو يفجعهم فيها فيقول : « ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم
ما انزل الله بها من سلطان » .

واحست قريش بالاختفاق يتمشى في صدرها ونفضت يديها من كل
امل يرجي في يوم ان تنال آلهتها من التقدير والحرمة في نظر محمد ،
ما هو كائن لها في نظرها . فلم تجد بداً والأمر كله جد من ان تقضي
عليه منها كل ما كان .

ها هي ذات جمع الى زعيمها ابي سفيان وتقرر الفتك به وابوسفيان
يستمع اليها ، واستعيراً ينقض ما ابومت لانه كان ابعد وأباً واصدق
فراصة اذ قال لها : وما نضع ببني هاشم وهم ليسوا من الهوان حيث

تظنون ، وما اخلهم يدعون رجلاً منهم تناله السيوف ثم يتوكون
سيوفهم تنام في انمادها .

بيد انه يعطي فكرة اقرب الى التنفيذ والامكان وليس فيها من
خطر على قريش ولا اراقة للدماء ، هي مقاطعة بني هاشم مقاطعة
كلية ، حتى يسلموا محمداً .

ومن اجل ذلك تعاقدوا على صحيفة ، وتمكيناً لاصرارهم وثباتهم
علقوها في جوف الكعبة .

وهكذا تم الحصار واستمرت المقاطعة مدة ثلاثة اعوام حتى
ضاق ببني هاشم الامر واصيبوا بالجهد والسغب ولم ينفرج الامر الا
حين اخبر النبي عمه ابا طالب بان الارضة انت على الصفحة الآتية
ولم تترك سوى اسم الله .

وما كاد يخبر ابو طالب قريش بما كان من امر الصحيفة الظالمة ،
وكيف انت عليها الارضة ، حتى ذهبوا الى جوف الكعبة وتيقنوا
انهم ظلموا بني هاشم وظلموا محمداً بما ضربوا حولهم من حصار ،
وهكذا رفع الحصار .

* * *

كانت الاقدار ترعى النبي وتحيطه ببسالة عمه وحنان خديجة .
ولعل الله اراد ان يثبت للملا ان الرعاية انما هي رعايته ، وان الحفظ
انما هو حفظه ، وما ابو طالب وما خديجة الا من الاسباب الآتية
التي جعلها الله وقاية لنبيه .

ها هو ابو طالب يقضي نحبه ، وها هي خديجة بعد اشهر تقفواثره
وها هو النبي تشد به الاحزان .

وها هم المسلمون يطلقون على هذا العام : « عام الحزن » .

* * *

اعتقدت قريش بعد موت ابي طالب وخديجة ان في مقدورها ان تناله مأربها من النبي وان تقضي عليه وعلى دعوته وان تبددانصاره ورجالها ، واعتقدت ان محمداً بعد نكبته بموت ابي طالب وخديجة يخلد الى السكينة ولا يأتي بحركة ضدهم .

خاب ظنهم ، ها هو يواصل جهاده ونضاله ، وها هو يغادر مكة الى الطائف .

الطائف ! ذلك البلد الحبيب ، البلد الذي اقتطعه الملاك جبريل من الفيحاء بأثماره ومائه الغزير ، وحداثته الفينانة ، ونساءه العذبة ونشره الفواح ، ورواياه النضرة ، اقتطعه ليكون استجابة لدعوة ابراهيم حين طلب الى ربه ان يرزق من كل الثمرات اهل هذا الوادي الجديب ولم يجد النبي في الطائف اقبالا على دعوته ولا تلبية لندائه فقفل راجعاً هو ومولاه زيد الى مكة ولكنه حين مر بنخلة في جوف الليل وقف يصلي ويناجي الله ويضع اليه ويتلو كتابه بصوت شجي مؤثر ، وبينما كان كذلك مر به نفر من الجن فسمعوا كلام الله يتلوه نبيه فذهبوا الى اقوامهم قائلين : « يا قومنا اناسمنا كتاباً انزل من بعد موسى يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ، يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم » .

وقد دخل النبي مكة بعد ذلك واعلن الذودعنه واجاره مطعم بن عدي

* * *

وكان النبي في هذه الفترة على اشد ما يكون ضيقاً ونصباً فانه

كان يجد اشد الصعوبات في ابلاغ رسالة ربه وافصح الآلام والوجاع
ولكنه لم يحفل بكل ذلك ولم يخش بطش قريش ولا تصميمها على
الفنك به ، بل ظل يحتمل ما يحتمل بقلب مطمئن ونفس راضية
ويقين ثابت بالنجاح في نهاية الامر .

وفي ذات ليلة وهو مضطجع حيال الكعبة ، وقد طافت به
الاحلام كل مطاف ، وفكر في اعمال قريش وفي جهلها وعصبيتها
لوثنتها ، وفي حالة الانسانية وانصرافها عن عبادة الله ، فكر في كل
ذلك ، وادرك ان الله العظيم الذي اوكل اليه اداء الرسالة ، هو القادر
وحده ان يهيء له السبل التي تجعله يؤديها خير اداء بفوز ونجاح .

اصبح النبي على اتم ما يكون الاشرار والبهجة فواحاً نضراً
ملاً ثغره الابتسام الوضاء ، والامل الناجح يحفل بين جافحته ويفهم
صدره ، وما هو ذا يتحدث الى عمته العجوز ويستفيض في الحديث
يتحدث عن رحلته السماوية التي شاهد فيها من عجائب الاقدار وغرائب
السكائنات ، وما ابدع الخلاق في سماواته ، وما اوجد في عوالمه ،
يتحدث اليها عن هذه الرحلة وقد اعتقد ان خالق كل هذه السكائنات
ومبدع كل هذه العوالم ، هو حقاً قادر على ان ينصر عبده محمداً على
الانسانية جمعاء ، وان يظهر دينه الذي ارتضاه ولو كره المشركون .
واقترب المللكان يقودان البراق وهو امرع من البرق ، رابة
مخوفة من قوى الكون ، تسبق الضوء في سرعته ...

اتينا يثرب ، وصليت بها ، وآذني جبريل انها موطن هجري
وهكذا ضربنا الارض الفضاء وانتهينا على بلدة عجيبة ، فنزلت
وصليت تحت شجرة فينانه اظلطني وقال لي جبريل انها مدينة مدين
وهذه شجرة موسى !

وقد اعترضني جبل شامخ تتلأأ قممه كأنها اجنحة الملائكة ،
وهناك صليت فاذا جبريل يقول : هذا طور سيناء حيث كلم الله موسى
وهوينا الى الكهف الميمون المبارك المظلل بغيائم النور ، حيث
ولد السيد المسيح في بيت لحم ، وصليت ، وافضيت الى هيكـل
سليمان ، الى المسجد الاقصى المبارك ، واذا الرسل محتشدة على قدم
وساق والملائكة تغمره من السماء الى الارض واذا الاضواء تنبعث
من الافاق ، صليت بهم وما كدت ان انتهي من الصلاة والسلام
حتى انتصب معراج النور معراج الاقداس من السماء الى الارض ،
وفي اسرع من لمحـة الطرف كنت اجوب في السماء الدنيا ، وهي
عجب ، الفيت بها آدم ، وقطعنا بعد ذلك ما بين السماء الدنيا التي
جعل الله عوالم النجوم زينة لها ، الى عوالم اكبر واشد دهشة ، حتى
دخلنا في السماء الثانية ، فسلمت فيها على يحيى وعيسى ، وما كدت
الـج في الثالثة وقد امتلأت نفسي من عجائب عوالمها ، حتى رأيت
يوسف آية الجمال ، فسلمت عليه . ثم الفيت في السماء الرابعة النبي
ادريس ، اقدم الانبياء من بعد نوح ، وفي الخامسة الفيت هارون
وفي السادسة موسى وفي السابعة ابراهيم . عوالم كبرى قطعناها ،
فيها كل التهاويل التي لا يستطيع ان يدرك كنهها عقل الانسان ،
ولا يحيط علمه بأسرارها وعجائبها .

وما اشرفت على سدرة المنتهى ، زينة عوالم الغيب ، وقتنة وجود
ما وراء الطبيعة ، انهار الجنة تنفجر من اعقابها ، واضواء الاملاك
تشرق في اصولها ، غشيني موجات من النور حيال السدرة ، وينابيع
من الاشراق ، لا يدرك نهايتها الخاطر ، ولا يحيط بمداهـا العقل .

وقد ارتفعت بي هاتيك الامواج الى ابعاد وراء ابعاد حتى
سمعت صرير اقلام الاقدار ودوي تصاريف المقادير ، وتجلت لي من
آيات الله ما تجلت فخررت ساجداً لربي ، فاوحى الي ما اوحى .

* * *

لذا الحديث لعمته العجوز واخذتها صور السماء وعوالمها الغريبة
وشاهدت من معالم الوجود ما كانت تجهل . وما كاد ينتهي ابن اخيها
من حديثه حتى استيقظت من غمرة النور وبهجة الحديث وهي تقول
— والان ما انت فاعل ؟

يا ليت شعري ، اي سؤال هذا ، ما هو فاعل ؟ وهل على رسول
من امر سوى التبليغ ؟ وهل على رسول من امر سوى متابعة الجهاد
وهل على رسول من امر سوى اداء الرسالة ؟

* * *

قريش العتاة الظلمة ، قساة القلوب ، المقرنون في اصفاد الواقع
الضيق ، والذين قضوا اعمارهم الطويلة ولا يعرفون سوى ما تشعه
عليهم الصحراء المجذبة من وشل المياه الآسنة وجذب الرزق والذين
لا يعرفون في امرع ما يذهبون سوى ببطء الرواحل ، قريش التي
لاتدرك من قوى الالهة ، ولا من عجائب اقدارها ، ولا من امكانيات
اعمالها سوى ما تأتتهم به تلك الاحجار المنصوبة في الكعبة ، ينسبون
اليها بعض اعمالهم وامكانياتهم وتصرفاتهم ، ويخالونها انها كل ما
تستطيعه الالهة من اعمال ، ان قريش ليس في امكان عقليتها الواقعية
المتحجرة الضيقة ، ان تفهم مسبح الارواح في عوالم الغيوب ولا
مناجاة الانبياء خللاق السماوات ، ولا تداني الابعاد الشاسعة في

امكانيات الاملاك ، فكان لابد ان تنكر على النبي عروجه الى
السماء ايا انكار ، وتعتقد ان الذين آمنوا سوف يتحملون من ايمانهم
وما كسبه محمد في مدى اعوامه الطويلة من رجال آمنوا ، ذوي
عتول ، سوف يخسرهم صفقة واحدة .

فرحوا وسروا لحديث المعراج ورقصوا لانهم آمنوا به ولكن
لأنهم خالوه ثغرة ينحدرون بها الى موطن الشك والريبة في قلوب
المؤمنين فيصرفونهم عن محمد .

لجأوا الى اكبر المؤمنين ، ابي بكر ، وقالوا له :

— ما رأيك فيمن يقول انه صعد الى السماء وطاف العوالم وقطع
نهاية ابعادها ثم ثاب ، وفراش مرقده لم يبرد من حرارة جسده ؟

— انه مجنون ! ماذا اقول : مجنون !!

— محمد ، محمد ، هو الذي يقول ذلك ؟

فيرفع حينئذ صدره وتستيقظ حيوية الايمان في نفسه وتتجلى
له قدرة الله المهيمنة على الكائنات قائلاً : بصوت عريض خارج من
اعماق قلبه :

— ان قال محمد ذلك ، فهو حق !!

وهكذا يقف الصديق مرة ثانية يؤدي للاسلام الايمان كما ادى
له صدق الدعاية حينما آمن لأول مرة !

* * *

وقد يعجب القاريء اليوم حين يعلم ان بعد حادثة المعراج وما
قصه النبي على قومه من الاحداث والنهاويل التي جرت ، ازداد
اذاهم عليه وتكرهم له واشتدت وطأهم عليه . والنبي كعادته لم

يكثر لكل تهجماتهم ولم يبال بكل مفترياتهم وتضليلهم بل كان
إذالقى قوماً من الغرباء اتوا الى مواسم الحج ، ألم بهم وابلغهم
رسالة ربه وتلى عليهم ما انزل الله .

* * *

وفي يوم القى ستة نفر يصطلون حول نار لهم وهم قوم من يثرب
فدلف اليهم وشرع يقص عليهم امر الرسالة ويبلغهم اياها ، فلم
يتنكروا له بل اصغوا الى حديثه واطالوا الاصغاء ، ولذ لهم الحديث
ووجد الى قلوبهم منفذاً ، فنفذ واستقر ، ذلك لأن هؤلاء النفر قوم
لهم سابقة بمعرفة الدين ، جاوروا يهود يثرب وسمعوا منهم شيئاً من
كتاب موسى وعلموا ان وراء هذه الحياة حياة اخرى .

هؤلاء النفر الست كانوا الغرسة الاولى للاسلام في يثرب ، آمنوا
وبائعوا على ايمانهم ورجعوا مبشرين قومهم .

وهذه في الحسينان صدقة موفقة ولكنها في مشيئة الاقدار
اعطاء لرسالة الاسلام طريقها الاول العملي الذي قدره الله لنجاحها



الفصل الخامس

في هذا اليوم ازدهرت يثرب وفرشت ارضها بسعف النخيل
وازدحمت الجموع على طرقاتها وعلى الاسطحة وذهب الفرسان يملأون
ارباضها ، كأنهم ينتظرون قدوم زعيم .

ذلك اليوم هو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول المقابل
لتموز سنة ٦٢٢

انك ترى الفرسان اخذت تشرع السيوف من بعيد تضوي
كأشعة الشمس ، واخذ يدوي هتافهم ويملاً المسامع ، واخذ الناس
يتنادون من يثرب وهم على رؤوس النخيل واعالي الاسطحة وقم
الجبال : ها هو ذا اقبل واخذ يحبي الفرسان ويصافحهم ثم اقبل
على يثرب وجوعها الغفيرة والولدان والنساء يضربن الدفوف
وينشدن الاناشيد ويزحفون تجاه الفرسان لاستقباله .

من هو ذا الذي حفلت به يثرب ، واعدت كل ما تستطيع من
زينة وبهجة وكل ما يدخل في امكانها من حفاوة واكبار ، من هو
ذا الذي اشرق لاستقباله ونهد للحفاوة به الولدان والنساء والشيوخ
العجز والفرسان والابطال ؟ ! ...

من هو ذا الذي اجمع على الحفاوة به بنو الحزرج والاوز ويهود يثرب
هذا هو محمد ! هذا هو رسول الله !

انك ترى الزعماء والوجهاء ، كل يؤثر ان يزدان منزله وتزدهر
حديقته لضيافته ، وكل يؤثر ان يستطير بهذا الفخر ويستكبر بهذا
الشرف ويعلو على الاقران والاتراب ، والنبي ، ذو الخلق الكبير قد

ترك القيادة لناقته ، يأبى الا ان يستوي بين تلك الجموع في حقوق
الحرمة واحترام العواطف ، تركها لان الله الذي اختار له النبوة
سوف يختار له منزله في يثرب . وما زالت كذلك تمتشي بين طرقات
المدينة والجموع تحيط بها ، والدفوف تدق ، والانشيد تترنم ، حتى
انفلت امام دار ابي ايوب الانصاري .

لبست يثرب بهجة الحياة الجديدة واشراقات اضواء السناء ، وعلتها
الزينة ، فخلعت كل ائمال الجاهلية البالية ، خلعت حتى اسمها القديم
ولبست ما حباها محمد من اسماء : طيبة ، المدينة ، العاصمة .

* * *

رأيت سابقاً محمداً وهو يدلف الى اولئك النفر الست الذين كانوا
يصطلون الى نار لهم وكيف تحدث اليهم وكيف آمنوا به وبدعوته
وقد نجم عن ذلك الاجتماع الصغير اجتماعان كبيران ، وقريش
لا تدري شيئاً بما كان ، اجتماع بيعة العقبة الاولى وعدد رجالها اثنا
عشر رجلاً وامرأتان وبيعة العقبة الثانية وعدد رجالها ثلاث وسبعون
رجلاً وامرأتان .

انك كنت ترى اولئك الرجال يتسللون الى العقبة في الهزيع
الاول من الليل ومعهم امرأتان نسبية بنت كعب واسماء بنت عمرو .
انهم ينتظرون قدوم النبي وهم في مكمنهم . وما كاد يصل اليهم
همساً حتى زحفوا اليه والتفوا به ، وهنا بشر النبي برسالة ربه وتلا
القرآن ووعظهم ونصح لهم ما شاء الله وقد تمت البيعة على الهجرة
اليهم بعد ان اخذ لنفسه موثقاً من الله وبعد ان استوثق له عمه
العباس بقوله وهو على اشراكه :

« ان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتوه اليه ومسانعوه بمن

خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك ، والا فدعوه بين عشيرته فانهم
لبمكان عظيم .

بيد ان زعيمهم البراء بن معرور اجابه بحماسة : « والله لو كان
لنا في انفسنا غير ما ننطق به لقلناه . ولكننا نريد الوفاء والصدق ،
وبذل مهيجنا دون رسول الله » .

ثم التفت الى النبي قائلاً له : خذ لنفسك ولربك ما احببت .
فقال النبي : « اشترط لربي ان تعبدوه وحده ولا تشرکوا به شيئاً
ولنفسى ان تمنعوني بما تمنعون به نساءكم وابناءكم ما كنت فيكم .
فنادى الهيثم بن التيهان : يا رسول الله ان بيننا وبين الناس
عهوداً وانا قاطعوها ، فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله
ان ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم النبي وقال كلمته الخالدة التي تملأ صدر التاريخ وفاءً وجلالاً
« الدم الدم ، الهدم الهدم انا منكم وانتم مني ، احارب من حاربكم
واسالم من سالمكم » .

وهكذا استقرت الرسالة لاول مرة في يثرب ، في حصنها
الحصين ، بين ابطال اعدوا انفسهم للجهاد والنضال والمكافحة كما
اعدوا انفسهم لطاعة الله واستماع كلمة نبيه .

* * *

كانت الليلة ظلماء حالكة وقد أوى الناس الى مراقدهم وظل
النبي ساهراً يرقب الفرصة المناسبة حتى اذا مضى الهزيع الاول والثاني
من الليل ، مضى الى دار الصديق ابي بكر ومضيا معاً الى غار ثور
حيث اختفيا استعداداً للهجرة .

نعم ! افلت النبي من مؤامرة قريش الفتاكة ، وترك على فراشه

نهباً لسيوف المأمرة البطل المضحي والمؤمن الشاب ابن عمه وربيه
علي بن ابي طالب!!

يا ويسح قریش! کم كانت فیجیعتهم صارخة حين لم یعثروا علی
النبي فی مرقده، وکم صخبوا ورجوا واخذوا یضربون الارض بسیوفهم
ورماحهم، سخطاً علی فرصة افلئت من ایدیهم. كانوا علی اهبة الفتک
به، وکانوا جمیعاً یداً واحدة وقلباً واحداً تقاسموا علی ان لا یدعوه
یهاجر الی یثرب، ففقدوا ذلك، ولكن ذوي الرأي والحصافة لم
یدخل الناس الی قلوبهم وقدروا ان فی الامکان انتهاز الفرصة قبل
فواتها، فلم یحضر بعد تغيبه اکثر من ساعات. ومهما یکن من امر
وهم عشيرة کبيرة فیها الفرسان وفیها المغامرون المضحون وفیها
العداؤون وفیها اللقیافون، کل ذلك لا بد وان یجعل محمداً بین
ایديهم یجندلاً بدمه

هذا لجب قریش یسکد یستطیر بالغار، وهذا لمعان سیوفهم
واشتعال اسننتهم یکاد تمزقه تمزيقاً، وهؤلاء القفاة یشیرون باصابهم
ان محمداً قد انتهى الی هذا الکف. والصدیق ترجف بوادره فیمسک
برسول الله خشية علیه، ورسول الله تغمره الطمانينة والثقة بالنجاة،
یقول لصاحبه: لا تحزن ان الله معنا! ما ظنک يا ابا بکر بائنین،
الله ثالثهما؟!

تواريا یجنح الله واستترا، ومن یضم جناح الله لا یضم.
یتسلق بعض القفاة الی الغار وفی کل عقیدتهم ان محمداً مستخفياً فیهِ
ولکنهم ما کادوا یطاون علی فمه حتی راعتهم الحمام الجائئة علی
اوکارهما وحتى دهشوا لنسیج العنکبوت الذی یملأ فم الغار
واغصان العوسج الممتدة علی اطرافه.

قفلوا

ووجوه الارض تلعنهم ، كباطل ، من جلال الحق ، منهزم .

* * *

هذا رسول الله وهؤلاء هم الانصار والمهاجرون يشيدون مسجد المدينة ، الحرم ، بعد ان ابتاع ارضه رسول الله من الغلامين اليتيمين وابي ان يقبلها هبة حفظاً لحقوق اليتام ، يشيدونه بانفسهم ، يحفرون اسسه ويقطعون احجاره ويحملونها ويقيمونه بيتاً لله .

وهذا هو المسجد الثاني الذي شيده رسول الله بعد مسجد قباء وقد اتخذ النبي داره ملاصقاً للمسجد يطل عليه ويخرج منه اليه ، اذ المسجد في اول الهجرة هو كل شيء .

والنبي بعد الهجرة ظل على بساطة الحياة والرغبة عن زخرف الدنيا وزينتها راضياً بشطف العيش وخشونة الملابس والقلة في كل شيء .
وكان جم التواضع يتألف الاقوام على اختلاف نحلهم ومذاهبهم يقظاً فطناً خبيراً بمعرفة الطبائع البشرية المتباينة قديراً على اكتساب شتى القلوب ، انه يحادث الجميع وفيهم المسلم واليهودي والوثني والمنافق الذي يظهر الاسلام ويبطن الكفر ، يحادثهم بذلاقة منطقته وقوة حجته وصدق لهجته فيؤثر فيهم جميعاً ويوحد ذات بينهم ويحكم ويعدل في احكامه . وقد آخى بين المهاجرين والانصار وكان هو واصحابه يمثّلون السلطة العليا في المدينة .

وكان دفع العدوان هو واجب المسلمين جميعاً وحلفائهم ، وانك ترى النصوص التي تأمر برد العدوان ووحدة الكلمة والاعتصام باوامر الله كثيرة جداً

« واعتصموا بمجبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله

عليكم اذ كنتم اعداءً فآلف بين قلوبكم ، فاصبحت بنعمته اخواناً »
 « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم
 واولو الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ، ان الله بكل شيء عليم »

* * *

والنبي لم يرد بتأسيس دولة الاسلام الاستمناح بالسلطان وبهجة
 الحياة وزينتها والغلبة والقهر والعدوان وانما يريد مملكة انسانية
 يعبد فيها الله وحده مع الاحتفاظ بحرية الرأي والعقيدة ولا يشرك
 به شيء من اشياء الكائنات المادية والمعنوية وتتساوى فيها الحقوق
 بين كل الامم والشعوب ، وتحفظ الحريات ، ويتوفر طيب العيش للجميع .
 وهكذا استطاع ان يوجد للامة العربية الممزقة التي كانت تفقد
 الوحدة ، اجيالاً والحكومة المركزية والشرائع والدساتير ، استطاع
 محمد ان يجعل لها حكومة مركزية لها شرائعها وقوانينها ولها مكانتها
 المرموقة بين الامم والشعوب ، واحترامها واكبارها .
 والاسلام في تعاليمه جد رفيق ، ويسير لا عسر فيه ، وليس فيه
 ما يحيا في العقل وينابذ المنطق والعلم . فرض لتمكين الاجتماع والتعارف
 الصلوات الخمس ، ولم يجتزئ للنداء الى هذا الاجتماع غير صوت الانسان
 الندي الذي لا يضاهيه صوت مہارق وعذب . وجعل القبلة بيت
 ابراهيم المقدس في قلب كل عربي بعد ان كانت المسجد الاقصى !
 وفرض الزكاة ترفيهاً لعيش الطبقة الفقيرة واسعاداً لها كما فرض
 الصوم تربية للارادة الانسانية وتعويداً لها ليدخل في امكانها كبت
 الشهوات والقضاء على الرغبات الضارة .

* * *

اصبح الاجتماع في يثرب واربابها والقبائل التي حولها اجتماعاً

انسانياً رقيقاً : وقضى على الاخذ بالثارات ونعرات الروح القبلية
وتحاجز العواطف المتباينة ، قضى على كل اسباب الفرقة والشتات
وحلت محلها السلطة التشريعية الحديثة والتنظيم الالهي فأصبح القوم
وهم اخوة في الحقوق متساوون في الواجبات لا فرق بين مسلم
ومسلم في شيء ما.

وهكذا استت الدولة الاسلامية على الديموقراطية والعدل
والمساواة العملية بين الناس جميعاً ، فغير المسلمين هم ذميون لهم من
الحقوق العامة السياسية والواجبات ما للمسلمين ولهم ذمة الله وذمة
رسوله ، يضمن عليهم الامن وترخى عليهم الطمأنينة وعلى عقائدهم
ومعاهدتهم ويفسح لهم في مجال العيش ، وقد قضى على السلطات
القبلية التي كان يمثلها زعماء القبائل ورؤساؤها ، واصبح قوام الدولة
وعمام السلطان في يد رسوله الله متبعاً في كل ذلك الوحي الالهي
لا يحيد عنه ولا يقتضي الاهداء هو والمؤمنون جميعاً .
وهكذا اراد الله ان يؤسس على يد رسوله اول حكومة
انسانية جمهورية الهية في العالم !! ...



الفصل السادس

ان سلسلة الحوادث التي مرت بابي بكر منذ اسلم تعطيك صورة رجل اخلص للنبي ابر الاخلاص واسماه بله الصداقة القديمة وصلاتها الوثيقة ومثانة عراها ، والنبي الوفي اراد ان يكافي الصديق صديقه القديم ورفيق هجرته والناهض بالدعوة والباذل في سبيل ذلك من ماله وذات نفسه الكثير الكثير ، فخطب اليه ابنته عائشة وهي لا تزال في السابعة من عمرها طمأنينة لقلب ابي بكر وليكون صهر رسول الله . ولكنه لم يدخل عليها الا بعد ان استكملت انوثتها ونهدت كسنان الفتيات في البلاد الحارة اي في التاسعة من عمرها بعد الهجرة ولم يتزوج عذراء غيرها .

وقد يبدو غريباً في الوسط الاوروبي هذا الزواج ولكن اذا نظرنا الى العوامل التي اقتضته والى البيئة العربية والعرف والتقاليد لا نجد فيه شيئاً من الغرابة ، كما لم يجد الاصحاب المعاصرون لمحمد جميعاً والمسلمون قديماً وحديثاً .

وانك اذا انعمت نظرك في المقاصد الاولى التي كان يريدھا النبي من زواجه ، ادركت عمق اغراضه السياسية وطريقة التأثير في نفوس القبائل وزعمائها وجلال الوفاء الذي كان يغمر نفسه ويؤثر في اتجاه اعماله قبل كل شيء .

واذا كان وفاؤه لابي بكر ورغبته في مكافأته دفعه لان يخطب ابنته عائشة وهي في السابعة من عمرها فنفس هذه الغاية هي التي دفعته لان يتزوج سودة بنت زمعة المسلمة الكهنة الصابرة التي فاءت بالاعباء وتحملت مضى الهجرة الى الحبشة وفجيعتها بموت زوجها المسلم الغيور

في دار الغربة والتي صبرت الصبر الجميل . فلم تبهرم ولم تشك ولم تنع على الاسلام الذي اصببت من جرائه بما اصببت .
وقد كانت عائشة ابنة الصديق احب نساءه اليه واقربين الى قلبه
وآثرهن الى نفسه قدوفر لها كل اسباب الراحة مستجيبة لرغباتها .
وكانت النساء المعجائز يدخلن اليها ويقلن لها باحترام : انت امننا
الصغيرة ، ام المؤمنين .

* * *

ان ابلاغ الرسالة الى العالم هي الهدف الاول والاخير للنبي ، ولم
تكن مشاغل الاسرة والحياة لتحول بينه وبين اداها ابداً .
وانك اذا نظرت الى عنف قريش وموآمراتها الدموية وربط
جأشها على اغتياله مراراً ، بل اذا نظرت الى كل القبائل العربية
حينذاك القيت الغزو جل عملها .

ولم يكن النبي الى ذلك الوقت وان كثر حوله الرجال قد
اذن له في النضال ودفع العدوان بالعدوان ولكن بعد كل تلك
الاعتدات جاء الوحي الالهي يبيح له حرب المعتدين « اذن للذين
يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من
ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » . وجاء ايضاً : « وقتلوا
في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

وقد تجمهر حول النبي المسلمون واصبح قديراً على توجيه القوى
الحربية التي كان يستعملها الجاهليون في سبيل الاغراض المادية وسلبيها
والتطاحن حولها ؟ يوجهها الى ان تكون في سبيل المثل العليا التي
اوحاها الله وفي سبيل الخير والروح الديني .

وقد كان محمد نبياً ومشرعاً وسياسياً وملكاً عظيماً ، ولخطيباً

مفوهاً ، وقائداً خطيراً ، محسكاً ، وان كان لم يدخل جامعة من جامعات الرومان ولا مدرسة من مدارس فارس .

ان محمداً قد كبر اسمه واعتز بربه حتى عرف باسمه وحده دون ذكر اسرته كما عرف نابوليون .

ان محمداً لنابوليون السماء !! .. (١)

ولم يكن لمحمد من عدو لدود قد استباح الحرمات واعد الأهبة للبطش به وبدعوته ، سوى مكة .

مكة التي كادت تغتاله مراراً ، مكة التي رصدت له الاعداء ، مكة التي قاومت الدعوة بحمد السيف ، مكة التي اخرجته من وطنه في ظلمات الليل ، مكة التي بعثت في اثره من يأتوا به جثة هامدة . هذه حال مكة مع محمد والمسلمين الاول . وهذه حال مكة قبل الهجرة وبمدها . فكان من الواجب ان يتخلص من هذا العدو اللدود الذي يجم في بيت ابراهيم ويمتلك مقدراته ويقود زمام القبائل التي تحج اليه وتصرفها عن دعوة الاسلام ما وسعها الجهد . مكة هي العقبة الكؤود بين الاسلام والقبائل ، اذن فمن الواجب

(١) يريد المؤلف بذلك ان نابوليون قبل شهرته الواسعة كان لا يعرف بين الناس الا بلقب العائلة : « نابوليون بوناپرت » وكفى . اما محمد فان اسمه وحده يكفي للتعريف به غير محتاج الى اضافة لقب الاسرة ، بل استفاضت معرفة اسمه وحده حتى في السماء لذلك قال المؤلف :

ان محمداً لنابوليون السماء !!

ان يتخلص محمد من هذا العدو الدود .
فبعث اولاً البطل الشديد عمه حمزة على رأس ثلاثين رجلاً يلقي
الذعر في قلوبهم ، ولكن حمزة عاد الى المدينة ولم يقاتل لان القوي
التي كانت تحمي قوافل مكة كانت كبيرة .

وبعد ذلك اعطى النبي كتاباً لعبد الله بن جحش وارسله على
رأس سرية مؤلفة من ثمانية رجال وامره ان يفض الكتاب بعد مسير
يومين ويعمل بما فيه ، خشية ان يتسرب الخبر الى بعض المنافقين
او اليهود فيفيضون به الى اوليائهم من قريش .

وحين وافى نخلة عبد الله بن جحش ، كما امره رسول الله في
الكتاب ، هو واصحابه ، هاجموا قافلة قريش وجاؤا بها الى المدينة
ومعهم عثمان بن المغيرة والحكم بن كيسان اسيران بعد ان فرّ نوفل
ابن المغيرة وقتل عمرو بن الحضرمي .

ولم يجد المشركون في مكة والمنافقون في المدينة واليهود الذين
يحملون الضغينة على محمد ما يشهرون به ويتنكرون عليه سوى انه
قاتل في الاشهر الحرم مما اضطر النبي الى ان يلومهم على قتالهم في
الاشهر الحرم ، ولكن الله جلّت قدرته الذي لا يعبأ بتقاليد تواطأ
عليها البشر ، ولا يقيم لها وزناً ، فما هي الاشهر حرم اوليست هي اشهر
فرضوا فيها السلم فيما بينهم ليسيروا قوافلهم في طمأنينة وامان ؟
والاسلام يحمل السلم الى العالم اجمع ، للمكة ولا لجزيرة العرب
وحدها بل للعالم اجمع !

فاذا كانوا هم استباحوا ان يفتنوا المؤمنين عن عقيدة الاسلام
التي تحمل المثل الانسانية العليا ، فما يستبجح الاسلام قتال اولئك

المشركين في الاشهر الحرم التي تواطأت عليها تقاليدهم . نزلت الآية وهي قول الله الحكم العدل رداً على المشركين وزجراً للمنافقين واليهود : « يسألونك عن الشهر الحرام ، قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل » .

* * *

اعتادت بدر ان ترى القوافل متكاثفة حول آبارها الغزيرة تروى الرواحل وتلاً القرب ، فبدر في الجاهلية كانت محطة تجارية كبرى . ما بال بدر اليوم مدججة بالسلاح ، الفرسان تصول وتجول في انحاءها واعلام قريش تخفق في اجواز الفضاء ، بدر متحفزة للوثوب تنتظر المعركة الفاصلة ومحمد بعده الضيل والمشر كون يحيلهم ورجلهم يعتقدون الفوز والنصر ، وما محمد وما جنوده حيال فرسانهم وابطالهم انهم نسوا الايمان الذي ربط ما بين الافراد القلائل الذين لا يتجاوزون الثلاثئة والثلاثة والعشرين جندياً ونسو القائد المدرب البصير بتعبئة الجنود ، الحبيب بتصرف الحرب ، الفطن الذي يعرف كيف يكتسب ، محمداً رسول الله !

بل نسوا السماء وملائكتها والارواح وقواها ، بل نسوا الله الذي يؤيد نبيه بنصره على قلة جنده وندرة اسلحته .

اعتز المشركون بكثرة فرسانهم وفرسانهم فنزلوا الى المعركة ولكنهم لم يلبثوا غير قليل حتى أهيل ابطالهم وكبرواؤهم جيشاً هادمة مقرحة مبتورة الاطراف في قلب بدر وحتى امر الشطر الثاني وسلسلوا في الاغلال واذا محمد رسول الله يقف في ظلمات الليل ويناديهم وهم

جيف ، وحدا واحدا ، ثم يقول لهم : اني قد رأيت ما وعدني ربي
حقاً فما رأيتم انتم ؟ !

واذا الملاك جبريل يهبط بهذه الآيات التي تذكر فضل الله على
نبيه وعلى المؤمنين وتذكر تأييده ونصره :

« اذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل
منكم ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد ولكن ليقضي الله امرأ كان
مفعولاً ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ، وان
الله لسميع عليم ، اذ يريدكم الله في منامك قليلاً ولو اراكم كثيراً
لغشتم ولتنازعتم في الامر ، ولكن الله سلم ، انه عليم بذات الصدور ،
واذ يريدكم وهم اذ التقيتم في اعينكم قليلاً ويقلكم في اعينهم ليقضي
الله امرأ كان مفعولاً ، والى الله ترجع الامور » .

« ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون
اذ تقول المؤمنون ان يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة
منزولين ، بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم
بخمسة آلاف من الملائكة مسويين ، وما جعله الله الا بشري لكم
ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ،
ليقطع طرفاً من الذين كفروا او يكبتهم فينقلبوا خائبين » .

هذه هي معركة بدر التي ترف بأعلامها في نفس الحديث وتبدو
واضحة جلية لدى انعام النظر فيها ، هذه هي معركة الاسلام الفاصلة
لا لأن القوم تحاربوا فيها بالطائرات ولا الدبابات ولا بالاسلحة الثقيلة
المعروفة في عصرهم بل حارب الحق الباطل فصّره ، والنور الظلمة
فابادها ، والخير الشر فقضى عليه !! ...

الفصل السابع

كان الهواء يمر طلقاً بالنجاشي وهو في حديقة قصره وقد غادر عرشه وجلس الى فتية من العرب يرتدون ثيابهم الزاهية وقد جلس جلستهم وأخذ يتحدث اليهم واشعة القمر تنسكب كذوب اللجين او اشعة الشمس من خلف الضباب. وكان مرحاً طروباً اليوم يطفر من البشر لا كعادته في جده واخذه في ادارة دولته . قال لهم : ارايتهم بدرا ؟ قالوا : اجل هي مستواد القوافل ومحط الحجيج ، منها يستقون وفيها يقولون .

— اما علمتم ما جرى بها ؟

— لا ! لا !

— ان الاخبار تطايرت في اقطار الارض فبلغت الهند وتجاوزت اسوار الصين وسقطت في قصور القسطنطينية وانقضت على عرش كسرى — اي اخبار ؟ اي اخبار ؟

— انتصار عظيم ، ويوم اغر محجل ، له ما بعده وعزة من الله زخرها لنبيه لتكون لعنة على الشرك والمشركين . — ماذا ؟ ماذا ؟

— ان محمداً انتصر على قريش ، ان رسول الله رفع راية الله ترفرف بالعزة والسلطان .

هذه عزة قريش هوت في اعماق الرموس ،

* * *

سيقت الغنائم والاسرى الى المدينة وعلم المسلمون ان الله ايد نبيه واعز جنده واخذوا ينتظرون حكم الله في هذه الغنائم الحربية

فاذا الوحي يهبط على قلب نبيه بقوله :
« واعلموا انما غنمتم من شيء فان الله خمسة وللرسول ولذي
القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، ان كنتم آمنتم بالله وما
انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير »
وهكذا رزع الغنائم بالقسطين المسلمين

* * *

لم يخلق نسر الأمن العظيم ويهضي اجنحته في المدينة وارباضها
ومن حولها من الاعراب ما اضفاه يوم بدر . يوم طعن قلوب المنافقين
والمشركين باسمه المسمومة كما افرح قلوب المؤمنين وازهاها بعزة
الله وملاها طمأنينة بوعده ، يوم عظيم ستعقبه حوادث عظام .
ان رسول الله هو السيد المطاع ، المطلق الارادة ، المتقيد بما
يوحيه الله اليه لخير الانسانية ، واسعادها ، وتوحيد كلمتها . وكـ
عفا النبي وغض الطرف عن اذى الاعراب الجاورين للمدينة على
كثرة اذاهم وطول قتنهم وتأثرها .

وانك لا تجد شيئاً من تلك الغنائم ظل مدخرا في يد النبي فقد
تلفقتها الايدي من يده السمحة البرة السكوب وامتلات منها دور
الانصار والمهاجرين .

اجل لا تجد شيئاً ، فهذا علي يتزوج ابنة النبي ولا تجد في بيته
وطاءً ولا غطاءً ، بل ليس له ما يتبلغ به سوى حفنة من الرطب
يحملها مساءً بعد عمل يقوم به جهد نهاره ليهودي .

* * *

وكان اليهود ينعمون في المدينة وسيطرون على ثروتها الاقتصادية
وعلى اسواقها التجارية ، وكان بنو قينقاع يشتغلون بصنع الاسلحة

ولكنهم كانوا يشعلون ابداً نار العداوة والبغضاء بين الأوس والخزرج من جهة وبينهم وبين سواهم من جهة ثانية لتبقى لهم العزة على الجميع والسلطان ، كما كانوا يرون انفسهم انبل من العرب ارومة واسمى منهم نجاراً لانهم يعتقدون انهم شعب الله المختار . والنبي لن يدخر وسعاً في التقرب اليهم والذود عنهم واجراء المعاهدات التي تحفظ الأمن والمساواة بين المسلمين وبينهم ، ولكن غاظهم كل الغيظ ان يأتي نبي من ولد اسماعيل ، وفي زعمهم انه ابن الجارية ، كأن ابن الأمة لا يستحق الكرامة من الله وكأن الله يحابي خلقه ، يعز هؤلاء ويذل هؤلاء ، لغير ما سبب .

لم يؤمنوا ان الله اختار نبياً من ولد اسماعيل ، لذلك قابلوا كل الاحسان الذي اجراه النبي عليهم بالاساءة فلم يطمأنوا اليه ولم يفوا بالعهود التي اخذها عليهم ، ولم يحافظوا على كرامة المسلمين كما حافظ المسلمون على كرامتهم ، بل شق الغيظ قلوبهم حين رأوا الوحدة الحقيقية تضم القبائل المتفرقة وروح الاسلام تلف قلوب الجميع يرباطها المقدس .

شق الغيظ قلوبهم فكانوا يكتُمونه حيناً ويعجزهم حيناً فيبدونه . يبدونه في اعمالهم واقوالهم ، وفي دسهم . وكان النبي يحتمل منهم كل ذلك ، رجاء ان يثوبوا الى رشدهم ورغبة في ان يضمهم لواء الاسلام . كل ذلك وهم على ما هم عليه غيظاً وحنقاً .

ارادوا ان ينتقموا من المسلمين وان يفجعوهم في اعز شي لديهم ، في اعراضهم . فخط احد بني قينقاع لامرأة من الانصار ذيل ثوبها في خمار رأسها من حيث لا تدري حتى اذا قامت انكشفت عورتها

لدى الجميع ، ف وقعت على الارض مغشياً عليها من الحياء ، واليهود
يضحكون من كل جانب ، فرأى احد المسلمين هذا المنظر الاليم
فلم يستطع صبراً ، فعدى على اليهودي وقتله ، فعدى اليهود على
المسلم فقتلوه ، وهنا تنادى الفريقان الى القتال . ولكن انتهى الامر
بفرض الجلاء عليهم دون ان يحملوا متاعاً او اثاثاً .

وقد امض قريش واثار ضغائنها ان رأت شوكة الاسلام تشتد
وتقوى وتحترم بين القبائل وشوكتهم يخفض من شأنها وتضعف
منزلتهم بين الناس ، ففكر ابو سفيان ان يسترد سلطان قريش في
انفس القبائل فجهاز معركة وهجم على المدينة علي حين غرة من اهلها ،
فقتل شخصين واحرق بيتين ونحلاً ثم فر هارباً حين تنادى الناس
الى السلاح . ولكن النبي لم يدعه يذهب سالماً مطمئناً ، بل لحقه
بجنوده فحشى ان يدرك فأخذ يتخفف بطرح الانتقال ، فطرح غرائه من
السريق فغنمها المسلمون وعادوا ، ومميت هذه الغزوة « بغزوة السويق »
ويلاحظ القاريء هنا ان الانتصارات حالفت الغزوات الاسلامية
الاولى وتتابع الغنائم على اهل يثرب وتدفت عليهم الاموال ،
ولكن النبي ظل كحال الاول ، لم يغير شيئاً من ملبسه او مطعمه
او مسكنه ، ظل في شظف العيش ، وخشن الملبس وضؤولة المسكن !!!...

* * *

كان المسلمون يشيرون على فارس ملتئم يثير اطراد جواده الغبار
هبيعة يوم ، وما كاد ذلك الفارس يقترب منهم حتى ترجل واعطى
النبي رسالة ، فأقرأها النبي لبعض كتسابه فاذا هي رسالة من عمه
العباس فيها انذار بحملة قريش اليه التي تعد ثلاثة آلاف من الرجال
فيهم مبعمئة مدرع وثلاثمئة فارس والالف بعير .

انه جيش جرار تنيره حماسة النساء وزغار يدهن ، وقرع الطبول
وقصائد الشعراء الحماسيين ، ورغبة في الثأر لقتلى بدر .

وحين تسمع المسلمون بقدوم الحملة ، التف حول النبي الف رجل
من الانصار يحملون السلاح مستعدين للحرب .

فاخذ النبي يستشير اصحابه كعادته فقرر رأيه ورأي شيوخهم على
البقاء في المدينة وترك الجيش يدخلها ، فان الانتصار عليهم اضمن ،
ولكن حماسة الذين لم يدركوا بدرأ وبالاحرى الشباب واصرارهم
على الخروج ، وهم الكثرة الناحقة ، اضطرت النبي ان يدعن لرأيهم
وان يرضى بالخروج تقريراً لرأي الاكثرية .

واخذ النبي يستعرض الجيوش ويهيئ نظامها بعد ان ارتدى لامة
حربه ، وامسك برمح ، وتقلد سيفه ، وامتطى صهوة جواده .

وفي طريقة عاد رئيس المنافقين عبد الله بثلاثئة من اتباعه فاصبح
المسلمون بعد ذلك سبعة مئة رجل .

ولعل قادة الجيوش اليوم يدركون تفوق النبي الحربي وقدرته
العجيبة في تنظيمه الفني للجيش ، فقد نظم الساقة والجناحين واحتاط
لظهر الجيش من عائلة الكمين فتترك الرماة على نشز من الارض قائلاً لهم :
لا تبرحوا امكانكم سواء انتصرنا وانكسرنا وهو يربد بذلك ان لا يعجلهم
الفوز فيطمعون بالغنائم فيتوكون ظهر الجيش عرضة لطعنات الكمين .
وهكذا وقع ما قدره النبي ، فقد غر انتصار المسلمين الرماة في
اول الامر ، وتراءت لهم الاسلاب والغنائم تسادهم وتحفزهم الى
ترك موطنهم .

وحين كثرت القتل في المشركين ترك فعلاً كثير من الرماة مراكزهم
ورئيسهم عبد الله يناديهم ويحذرهم عاقبة الامر ويذكرهم بوصية النبي

وقد فطن خالد بن الوليد رئيس الكمين لتوك الرماة موطنهم ،
فكرّ على الافراد القلائل الذين ثبتوا عند امر النبي وفضلوا الموت
على مخالفته ، ثم كر على المسلمين من خلف وعمل فيهم السيف فالثات
امر المسلمين واضطرب جمعهم ، وفروا من الميدان طلباً للحياة .
ولم يثبت مع النبي الاقدامى المهاجرين ورؤوس الانصار حتى
وقع النبي في شق من الارض وضربه احد المشركين فشج وجهه
واطاح رباعيته ، كما حاول احدهم ان يقتله ، فلما لم يجد النبي بداً
من النجاة الا بقتله ، ضربه بسهم فارداه قتيلاً . ولم يقتل محمد على
قوة بأسه ، وشدة شكيمته ، وبطولته النادرة انساناً سواه .
وتنادى المشركون : قتل محمد ! قتل محمد ! ففرق المسلمون
وجن جنونهم ، ولكن عمر كاد ينادي اخسأوا لم تقتلوا محمد ولكن
النبي اسكنه .

انصرف المشركون بعد هذا الانتصار الموقت وقد تركوا خلفهم
سبعين قتيلاً منهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب الذي حزن له
النبي اسد الحزن ، وبالاخرى ، بعد ان مثلت به هند ، ولاكت
كبده ، وجذعت انفه ، واعتقت عبدها وحشي الذي رماه ببيلته !!
والمسؤولية في قتل هذه المعركة انما تقع على عاتق اولئك
الرماة الذين غرهم الطمع والنصر العاجل فتركوا موطن الدفاع
من الخلف بما ادى الى الفشل ، ولو انهم ثبتوا قليلاً وترشوا لانتهم
الغنائم تسعى اليهم ولما قتلوا واسخطوا الله بمخالفتهم لامر رسوله
الذي ادرك بفراسته وعبقريته العسكرية خطر الكمين .
« ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه ، حتي اذا فشلتم

وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما اراكم ما تحبون ، منكم من
يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد
عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين ، اذ تصعدون ولا تلون على
احد والرسول يدعوكم في اخراكم فانابكم غماً بغم لكيلاً تحزنوا على
ما فاتكم ولا ما اصابكم ، والله خبير بما تعملون ، ثم انزل عليكم
من بعد الغم امناً نهائياً يغشى طائفة منكم وطائفة قد اهمتهم
انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الامر
من شيء ، قل ان الامر كله لله ، يخفون في انفسهم ما لا يبذلون لك ،
يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا ، قل لو كنتم في بيوتكم
لبوز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ، وليستلي الله ما في
صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور ، ان
الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استلهم الشيطان ببعض ما
كسبوا ولقد عفا الله عنهم ، ان الله غفور حلیم ، يا ايها الذين آمنوا
لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لآخوانهم اذا ضربوا في الارض
او كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك
حسرة في قلوبهم ، والله يخيبي ويميت ، والله بما تعملون بصير ، ولئن
قتلتم في سبيل الله او متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ،
ولئن متم او قتلتم لا الى الله تمشرون ، فبما رحمة من الله لنت لهم ،
ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر
لهم ، وساورهم في الامر ، فاذا عزمتم فتوكل على الله ، ان الله يحب
المتوكلين ، ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فبن ذا
الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

وقد اكسبت هذه المعرفة المسلمين العقيدة الثابتة بان ادني مخالفة
للنبي تنهار بهم وتودي ، وقد ازدادت الثقة بالنبي وبارشاده ونصائحه
وفهموا ان كل نجاح وكل نصر وكل ما يكسبونه في الحياة من عزة
ومكانة انما هو رهن بطاعته .

ومعرفة احد من الناحية النفسية درس عميق افاد المسلمين كثيراً
فيما بعد وجعلهم يقفون عند اوامر النبي متقدين بكل ما يقوله .

* * *

كان يلذ للنبي ويرضيه جداً ان يجد اعلام الاسلام ترفرف في كل
قبيلة وناحية ، وكل جهاده وجهوده لم تكن الا في سبيل القضاء على
الشرك والاشراك ، وعبادة الآلهة المتخذة من اشياء المادة وتثبيت
عبادة الله الخالق وحده من غير شريك .

وقد جاء اليه عامر بن مالك امير نجد يطلب اليه ان يرسل فريقاً
من القراء ينشرون الاسلام في نجد ويعلمونه الكتاب ويفقهونه في الدين
فلم يطمئن النبي الى اقواله وان كان يرغب كل الرغبة في نشر
الاسلام في ربوع نجد ، الا ان عامراً تكفل بحماية القراء والذود
عنهم واعطي عهوده ومواثيقه فأمن النبي على رجاله واختار منهم
سبعين رجلاً للقيام بواجب الدعاية والتبشير وتعليم الناس ما اوحى
الله ، وعلى رأسهم المنذر بن عمر .

وما كاد يدخل القراء السبعون نجداً حتى ارسلوا كتاب رسول
الله الى عامر ، فلم يعد الرسول وانما هجم عليهم قوم عامر يفتكون
بهم وهم عزل من السلاح ولم يفلت من القتل سوى كعب بن زيد
افلت باعجوبة .

ولم يحزن النبي على قتلى ، ما حزن على هؤلاء القراء الذين اعدهم

بنفسه للارشاد والتبليغ . وقد تألم ان يقع في فخاخ المشركين
واكاذيبهم وعهودهم واحاييلهم للمرة الثانية فقد بعث ستاً من
القراء لبعض القبائل المجاورين للمدينة ففتكوا بهم غدرًا ، واسروا اثنين
منهم ودفعوهما الى قريش بيعاً .

وقد ابتاع خميباً احد القراء صخر بن ابي اهاب ليقتله ثأراً لابيهِ
المقتول في غزوة بدر . وقد اقتادوه الى الكعبة وطفقوا يرمونه
بالحجارة . حين ارادوا قتله طلب اليهم ان يصلي ركعتين وقد صلاهما
ركعتين خفيقتين ثم قال لهم : فوالله لولا اني خشيت ان تظنوا ان
بي خوفاً من الموت لأطلتها ، فعدوا عليه وقتلوه شر قتلة .

ولم يكن سرور اليهود بقتل القراء اقل من سرورهم بخذلان
أحد . وقد جراحهم توالي النكبات بالمسلمين حتى بعثوا الى النبي
يطلبون دية شخصين لهم قتلهم المسلمون خطأ . فاجابهم النبي الى
طلبهم لانه حق وعدل . وقد دعوه الى مأدبة اقاموها له في ديارهم
فلبى الدعوة ولكنهم كانوا يريدون اغتياله فقد حاولوا ان يقدفوا
عليه حجراً ضخماً من عل ، ففطن النبي لمراذم فتوك وليمتهم وعاد
مغضباً وجيز عليهم حملة ، فحين رأوا الجد تحصنوا بأطامهم ، فحاصرهم
المسلمون واطالوا الحصار بل طفقوا يقطعون بعض نخيلهم فلمسا
رأوا ذلك فافوضوه على ترك القتال بان يدعمهم يحلون من المدينة .

وهكذا تم جلاؤهم شرط ان لا يأخذوا معهم شيئاً من متاعهم
سوى حمل بغير لكل ثلاثة منهم . فجلوا الى خيبر واذرعات . وكان
النبي معهم جد رحيم حيث لم يقابل ارادة الفتك به واغتياله بفتك
واغتيال مثله .

ولم يبق في المدينة من قبائل اليهود سوى بني قريظة الذين غدروا
بالمسلمين ثم الغدر في اخرج المواطن كما ستعرفه ، فاستحقوا بغدرهم القتل
ولم يؤثر النبي نفسه بشيء من الغنائم كعادته بل افاضها على فقراء
المهاجرين الاولين فكان عدله في تقسيم الغنائم باعثاً على رضى الجميع .



الفصل الثامن

لقد توطد شأن الحكومة الاسلامية الاولى التي اسسها النبي ، وقد جهز فيلقاً جراراً وقاده بنفسه الى بدر بعد ان انذر ابا سفيان بذلك ولكن الرعب قد تقاذف في قلوب المشركين فاقعدهم عن الموعد ، فألقى النبي بديراً خالية الا من جيوشه ، ولكنه تاجر وربح وثاب الى المدينة آمناً مطمئناً هو ومن معه .

وقد فرض الوحي الاسلامي للنبي خمس الغنائم لكي ينفقها في اسعاد الطبقة الفقيرة وما تقتضيه حياته الخاصة والدعوة الى الله وذوي القربى . وقد نهت حياة ذوي الحاجة وترفت وامست خصبة رفاقة نعم فيها المهاجرون الاول الذين فقدوا كل ثرواتهم حين اسلموا ووقعوا عن تجاراتهم واعمالهم واخذوا ينفقون ثرواتهم في سبيل الاسلام . والنبي لا يريد من مجتمعه ان ينغمر في الرفاهية والترف ويناع في شهوات النفس ولذات العيش وانما يريد مجتمعاً ينعم بالعيش الى حد ، ينعم ولا يسرف ، يريد ان يعيش عيشة فيها شيء من الحشونة وشيء من الصبر والجلد والاحتمال ، من اجل ذلك ، جاء تحريم الخمر التي تهدم حيوية الجسم المادية والمعنوية ، وتشل الحركة الانسانية الخيرة والعاطفة الكريمة وتهدم متانة الجسم الصحية ، وحرّم الميسر لانه يريد من افراد المجتمع ان يترسوا بالريح الذي يكتسب بالجد والعمل الحر الشريف ، وكذلك قضى على الخرافات التي تغمر المجتمع وتعبث بالعقبات وتشل الارادة العملية المبنية على الواقع العملي المجرد ، فحرم الكهانة والتنجيم والسحر .

وقد كان هو المثل الاعلى لكل فرد من افراد المجتمع ، المثل الاعلى في ثباته وجهوده وجبروت نضاله وكفاحه وصبره على الاهوال واقتحامه المشاق .

والديموقراطية الاسلامية تبدو في ارفع سبلها واقوم طرقها الشرعية في حياة النبي ، فكان وهو في ارفع ذروات المجد لا يزيد عن غيره من الافراد بل كانت دأره تغشاها الناس زرافات ووحداً ، اي كانت بيت الامة . وقد اسرف الاعراب الذين يفقدون الذوق الاجتماعي في مضايقة النبي صباحاً ومساءً ، ليلاً ونهاراً ، فكان من الحكمة ان يوضع من حد لهذا الضيق الذي كان يفقده حتى الساعة التي يطعمان فيها الى مرقد . والاعراب اعز شيء لديهم المال ، فجاء النص لتخفيف زيارتهم بطلب الاتفاق على الفقراء وتقديم الصدقات لهم قبل الدخول على النبي ، وبذلك استواح النبي شيئاً ما .

* * *

كانت نكبة القراء الذين قتلوا غدرًا في نجد سبب احزان متواصلة للنبي فكم جهد في تعليمهم وارشادهم ، وكم سهر على تلقينهم التعاليم الاسلامية والقرآن ، حتى اصبحوا قادرين على بث الدعوة واذاعتها بين الناس .

نعم ! كانت فجيرة القراء ابدًا تملأ نفس النبي وقد جهز النبي جيشاً يريد نجدة حيث قتل القراء ، ولكنهم فروا من جهة ولم يبق احد مستعد للكفاح . وهنا اتكأ النبي الى شجرة منفرداً بعد ان غسل ثوبه وعرضه للشمس . فانتهاز فرصة انفراده دغشور رئيس القوم ، فهجم عليه قاتلاً : من يمنعك مني يا محمد ، والسيف مسلط في

راحته ، فنظر اليه النبي رابط الجأش وقال : « الله يمنعي منك » .
 رجفت يدا دعثور حين نطق النبي باسم الله وهوى السيف على
 الارض فتناوله النبي وشهره في وجه دعثور قائلاً : « من يمنعك مني ؟ »
 فأجابه : عفوك وصفحك !
 وهكذا اعطى النبي درساً بليغاً لاعظم العفو وابلغ الصفح لالدعدوا!

* * *

جاء آنفاً ان النبي خرج الى بدر وفاءً لوعده وتحدياً لقريش
 واطهاراً للمعنوية الاسلامية .
 تاب الى المدينة وقد ولدت ابنته الزهراء ولدها العظيم حسيناً
 بعد ولادة الحسن بعام .

وكان النبي جد عطوف على الحسن والحسين ، رفيقاً بهما ، يجد فيهما
 عزاء عاطفة الابوة . كان يفقد الذرية الذين يرثون ملكه الضخم
 العريض وسلطانه الواسع ولكنه كان يجد في الحسن والحسين
 العزاء والسوى .

* * *

حفلت خيبر بيهود المدينة بني النضير وانزلتهم في دورهم
 وشاركتهم في اعمالهم ، ولكنهم حقدوا على الاسلام وعلى النبي
 افدح الحقد وكانوا ينتظرون الظروف لاثارة جزيرة العرب ضد
 الاسلام لكي يتخلصوا من محمد ويشويوا الى يثرب . وانفاذاً لخطتهم
 التي رسموها لاثارة جزيرة العرب ، بعثوا البعوث الى نجد والى مكة
 وابتاعوا من الاسلحة ما استطاعوا ، وفرقوا الاموال والعتاد وانفقوا
 من اجل ذلك كل ثرواتهم المدخرة ، بل رهنوا حتى مزارعهم وما يملكون .
 وقد استجابت قريش لفكرة الحرب والقضاء على محمد ودولته

وجهبوا هم ومن جاورهم من القبائل في نجد وغيرها جيشاً جراراً
بلغت جنوده العشرة آلاف ، وكان يرأس الجميع ابو سفيان كل هذا
الجيش يقصد هدم باني مجد العرب والانسانية ، يقصد هدم محمد بن
عبد الله رسول الله .

اجتمع النبي الى اركان حربه ورجال دولته وطفقوا يتداولون
شأن الجيوش الزاحفة اليهم ويرسمون خطط المقاومة ، وكان الجميع
في هذه المرة يتقيدون جداً برأي النبي ويستمسكون بأشارته وما
يهدف اليه .

وكان من بينهم رجل فارسي خبر الحياة طويلاً وتقلب في
النعماء والضراء وشاهد احوال الحرب لدى العرب والعجم هو سلمان .
اشار الى النبي ان يتخذ في ثغرة المدينة السكّانة في الناحية الشرقية
خندقاً يحول ما بين الاعداء وبين انفاذ خطتهم في اقتحامها .

والمدينة محصنة بالجبال والغابات والبساتين من كل جهاتها .
نعم هناك ثغرة يمكن للعدوان تنفيذ اليهم منها وهي مساكن
بني قريظة . ولكن بني قريظة كانوا لا يزالون محافظين على عهودهم
وصدقهم مع رسول الله فلا خوف من جهتهم .

هذا ابو سفيان قائد الجيش ، وهؤلاء الابطال حوله قد فغروا
افواههم دهشةً واخذ بعضهم ينظر الى بعض نظرات غريبة ، ماذا
رأوا ؟ ما هذا الذي امامهم ؟ واي شيء حال ما بينهم وبين المهجوم
على محمد ؟

خندق ؟ خندق ؟ من حفره ؟ وكيف كان ؟ ومن اين للعرب
هذا التنظيم وهم قوم رحل يعرفون الكفاح وجهاً لوجه لا خلف

الاسوار والخنادق .

انهم قد سروا قبلاً بصهيل الخيل ولمعان الاسنة وزغردة النساء
ومنوا انفسهم ما شأوا وابتغوا المدينة الحلو ، ومائم العذب الغزير ،
وظلالها الوارفة ، وغنائمها الجمّة ، والقضاء على محمد واصحابه ، منوا
انفسهم بذلك فاذا هذا الخندق اللعين فساغراً فـاه كفوهة الجحيم
يبتلع تلك الآمال في ساعة واحدة .

ما الحيلة وما يصنع وفي الجيش ابطال مغاوير كعمر بن ود العامري؟!
ان هؤلاء الابطال لم يكثرثوا للخندق واستهانوا به فوثبوا الى
الجيش ، وها انت ذا تشاهد عمراً في الجهة الثانية يلوح بسيفه ويصرخ
منادياً : البراز ! البراز ! ...

من لعمر الجبار ، من يستطيع مجابهة هذا الخصم العنيد الذي
جمع الى البسالة الخبرة الطويلة بالحرب ؟

خرج اليه بطل الاسلام وفارس بني هاشم وابن عم النبي وربيبه
سيف الله الغالب ، علي بن ابي طالب ، خرج اليه هازئاً صاخراً به
كأنه خلق هين ، فاستشاط غضباً حين رآه : اما رأى قومك من هو
اسنّ منك ، عد يا بني فان حياتك الغضة عزيزة علي ...

— ولكن اريد ان اقتلك ، وهنا يزجر في وجهه قائلاً :

— عد ! عد ! والا تركتك شطرين عبرة لقومك .

وهنا يصرخ علي الشاب البطل صرخةً كأنها صاعقة انبعثت
من خلال السحب ويهجم عليه هجمة عنيفة يتطاير لها الغبار وهو
يقول : خذها ، خذها ايها اللعين .

فيأخذ الغضب فارس الجاهلية وبطلها عمراً فينقض على عليّ

كأنه السيل المنهمر من اعالي الجبال ، وهنا رجفت القلوب ، وشخصت
الايصار ، وارهفت الآذان ، وانتظر الجيshan نتيجة المعركة ، فاما
نصر للمسلمين وخذلان للشرك ان استطاع عليّ الشاب ان يقضي على
هذا البطل العنيد ، واما سوى ذلك فيما لو قتل بطل الاسلام عليّ .
عليّ ، عليّ يقتل ؟ ايقتل في معركة حرب ؟ تالله لو استحال
الصحرء جنوداً وكل واحد منهم يحمل عزيمة عمرو ، وجبروت عمرو
وقرة عمرو ، وفروسية عمرو ، لما استطاعوا له قتلاً . ان علياً لا
يقتل الا غيلة .

ان علياً صرخ في وجه عمرو صرخة تردد صداها في اودية المدينة
وسهوبها ورجعت هولها جبالها ، صرخة تبعها لمعان برق خاطف جندلت
عمراً وجعلته شطرين علي وجه الثرى .

صرخ المسلمون جميعاً : الله اكبر ، الله اكبر ! ان علياً قتل عمراً !!! ..
الا ان قتل عمرو انذار بفشل جيش ابي سفيان ، انذار بالنهاية
التي انتهوا بها ، انذار بالحبية التي لحقت بهم .

قد اطمأن المسلمون الى النجاة من شرك العدو وجباثته في اول
الامر وان رابتهم كثرتة ، ولكن الذي زلزل قلوبهم زلزالاً شديداً
وارعبهم كل الرعب هو نقض بني قريظة للعهود وعلان انضمامهم
الى العدو واستعدادهم لفتح ثغرتهم لمرو الجيوش الى المدينة .

وقد جاء ضعفاً على ابالة تحاذل المنافقين عن رسول الله حين اشتد الامر
وتيقنوا الهلاك وقالوا ان بيوتهم عورة وما هي بعورة ، وقالوا ابن
تلك الوعود التي وعدنا اياها محمد وكيف نفتح بمالك كسرى وقصر
واحدنا لا يستطيع ان يجرس داره ؟ ما هي الا غرور في غرور .
وقد عدا ضعف هؤلاء المنافقين وتحاذلهم قلوب المؤمنين حتى ظنوا

بالله ورسوله الظنون ، وزاغت ابصارهم وبلغت قلوبهم الحناجر .
ولم تكن معجزة النبي فقط في ضرب الصخرة بمعوله حين انهالت
ككتيب الرمل بين يديه ، فشأن الله ان يؤيد رسله ، وما الضيق
الذي ينتاب الرسل والشدائد التي تنزل لهم والنوازل الا امتحاناً
لنفوس المؤمنين وتمييزاً للخبيث من الطيب .

وهكذا جاء نصر الله في الساعة الاخيرة ، فقد اسلم نعيم بن مسعود
العطفاي وجاء ليلاً الى النبي وقال له : مُرني بما شئت فقد اسلمت .
ادرك نعيم مكائد اليهود ، وادرك مقاصد قريش وقومهم الذين
انساقوا وراءهم انسياق الانعام ، لا يعلمون انهم يهدمون الابحاث
التي يريد بها الله لهم والعز والسلطان .

ادرك كل ذلك نعيم واعلن اسلامه لرسول الله وطلب اليه ان
يكلفه بهذه الشدة بعمل ، فقال له رسول الله : الحرب خدعة
خذلهم ، فذهب نعيم وقتن ما بين قريش وغطفان وبين اليهود ،
فطلبت قريش الى قريظة ان تفتح ثغرتها وتشترك في الحرب فأبت
وقالت غداً السبت ، ثم طلبت رهائن لها من قريش ، كما قال لها نعيم .
وهكذا تداعى اعتقاد ابي سفيان بصدق اليهود وادرك انهم مسلمون
الغنائم لمحمد كما قال نعيم . ثم ارسل الله رجلاً صرصراً عاتية سلطها عليهم
تقتلع خيامهم وتلاّ اعينهم وافواههم وآذانهم بالرمال وقد نفذت
ازوادهم وشحت المياه بين يديهم فلم يجدوا بداً من النجاة بارواحهم
وهكذا خابت اليهود في ما عقدت من مكائد ضد الاسلام ،
ونصر الله عبده محمداً واعز جنده وهزم الاحزاب وحده !
صدق وعد الله .

* * *

الله اكبر ! الله اكبر ! ان اليوم الخامس عشر من نيسان

سنة ٦٢٧ ليوم عظيم في الاسلام !!

* * *

اعتقد اصحاب النبي ان لا امل بتصرة الاسلام ، واليهود في جزيرة العرب ، اليهود الذين لم يحتفظوا بالعهود ، وقد خانوا مسؤولية العهد في وصايا موسى فطرحوها وراءهم ظهرياً . كادوا ان يقضوا على النبي واصحابه بخيانتهم ونقضهم العهود لولا رعاية الله وحفظه . اذن فلا امل لاي عمل اسلامي بالنجاح ولا رجاء في اي نصر ، وبنو قريظة احياء .

فساق النبي بعد ان ولت الاحزاب جنوده الى بني قريظة واحاط بهم اياماً حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ الذي حكم بقتل المقاتلة . وما كان اكره شيء للنبي من قتلهم ، ولكن الطيب الماهر تلجأوه ضرورات الابقاء على الحياة احياناً الى ان يبتز بعض الاعضاء المسمومة حفظاً للبعض الآخر .

وهكذا لو ظل اولئك اليهود لظل السم ينقل في وسط الجسم الاسلامي ويأتي على كل نصر .

* * *

بعد انتهاء القبائل اليهودية في يثرب وبعد ان استتب سلطان الدولة الاسلامية فكر محمد ان يربط صلاته باواصر القربى بينه وبين زعماء القبائل . وللقراية في المجتمع القبلي مكانتها العميقة التي لا تنكر . من اجل ذلك قضت الظروف على النبي ان يعدد زوجاته وان كنّ كبيرات في السن ومطلقات لازواج آخرين او ارامل ، اذ الغرض الوحيد هو توثيق اواصر الصلة .

فكما كافأ النبي ابا بكر على جهاده واخلاصه بان تزوج ابنته عائشة
فقد اعطى مثل هذه المكافأة لعمر حين تزوج ابنته حفصة .

* * *

يصعب جداً على العقلية الامة البدوية ان تتحلل من تقاليدھا
وعاداتھا اذ هي ترى التقاليد والعادات كل شيء في الحياة . فالتخلي
عنها هو التخلي عن الحياة نفسها .

واهون شيء عند الرجل المثقف ان يتخلي عن كل شيء وان
يعتق سواه ، اذا بدله صوابه وادرك انه حق ، من اجل ذلك كان
يعاني النبي اشد المعاناة كلما اراد ان يركز فكرة جديدة وان
يهدم فكرة عتيقة .

وها هو ذا يقول في حق البيت الحرام مخاطباً عائشة « لولا ان
قومك حديثو عهد بالاسلام ، لهدمت البيت واشدته على قواعدا ابراهيم »
ويرى القاري ، كيف استصعب المسلمون ان يتحللوا من الاحرام
قبل ان يؤدوا فريضة الحج حين اقتضت الظروف ذلك . ولولا ان
محمد نفسه بادر فحلق رأسه وتحلل من الاحرام لما فعل ذلك مسلم واحد .
وانك تفهم من ذلك ان قضية التبنّي المتعارفة في الجاهلية ، والتي
كانت تخلط الانساب ، وتجعل المتبنّي في حكم الابن الحقيقي ، قضية
معقدة في الاجتماع العربي القديم ، وليس في استطاعة احد ان يحل
عقدها الا الاسلام !!

هذا زيد بن حارثة الذي تبناه محمد في الاسلام وهو عبده وعتيقه
وقد زوجه من ابنة عمته زينب الهاشمية . انھا تزوجته على مضد . اجل
انھا اكبرت ان تأخذ عبدا وهي السيدة الهاشمية الرفيعة ، ابنة عمه رسول
الله وهي على اكبارھا لمحمد وصدق ايمانھا به لم ترضخ للزواج من زيد

الاحين نزلت في حقها الآية : « وليس لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ذللاً مبيناً » .

رضيت على مضض وهي لا تدري ، الحكمة الالهية في ارغامها على ان تتزوج عبداً ، ولم تفتن لهذا السر الاحين ضاق زيد ذرعاً بكبريائها ولم يعد قادراً على الاحتمال والبقاء بجانبها ، فاراد طلاقها واستشار النبي في ذلك ، فقال له : « امسك عليك زوجك » . فليس من المعقول ان النبي يحبل زينب وهو الذي زوجها لعبده ، ولكن الله اراد ان يطلقها زيد متبناه وان يتزوجها محمد نفسه ليقضى على تقليد جاهلي بال ليس له من سلطان .

لذلك جاء في الكتاب « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطراً ، وكان امر الله مفعولاً » .

اجل ! اجل ! تمت حكمة الله وتداعى التقليد الجاهلي وانتصب الحكم الاسلامي ، كل انسان يدعى لابيّه !



الفصل التاسع

مرت ستة أشهر على غزوة الأحزاب وانتهاء أمر بني قريظة وقد أعد النبي جيشاً يؤدب بني المصطلق الذين والوا قريشاً وعزموا على غزو المدينة. ولم يكديفضي إلى بئرهم المريسيع حتى فروا جميعاً فاستاق الغنائم وثاب مظفراً عزيزاً هو وجيشه. وكان من جملة الغنائم جوهرية بنت الحارث زعيم بني المصطلق ، فرأى النبي أن يتزوجها بدلاً للعداوة بالقري وناًليفاً لبني المصطلق واطلاقاً للاسيورات منهم . وقد أسلم من جراء هذه السياسة الحكيمة التي اتخذها النبي قاعدة لأعماله ، بنو المصطلق كافة .

وبينما كان الجيش يقفل إلى المدينة اذ اختلف بعض المهاجرين والانصار على الغنائم وانتهن عبد الله رئيس المنافقين فرصة هذا الخلاف فزاده اواراً ونفت من احقاده ما شاء حتى ندد بالنبي نفسه . فغضب لذلك عمر وطلب إلى النبي أن يقتله. ولكن النبي الحكيم ، النبي السياسي القدير ، النبي العارف بطبائع النفوس ، أبى ذلك قائلاً : كيف يا عمر ؟ اذا تحدث الناس وقالوا ان محمداً يقتل اصحابه ؟

وحين بلغ الخبر ولده التقي الورع والمؤمن الصادق ، جاء إلى النبي قائلاً : فوالله يا رسول الله ما عرف الناس ولدأ ابراً بابيه مني واخشى ان قتله احد سواي ان تثور بي ثورة الجاهلية فاقتله ، وحينئذ اقع في الهلاك فبرني احملي اليك رأسه . فاجابه النبي : - انا لا نقله بل نتوفى به ونحسن صحبته ما بقي معنا .

* * *

هذا صفوان يحمل على راحلته ام المؤمنين عائشة ليلتحق مسرعاً

بالجيش ، وها هم المسلمون ينظرون من كل صوب الى عائشة وهي على راحلة صفوان .

يسر هذا المنظر جداً رئيس المنافقين عبد الله فقد وجد وكرأ آخر يمد لسانه منه وينفث سمومه بعد ان آلمه سد الوكر الاول والقضاء على فتنة الغنائم ، يرفع صوته امام المنافقين قائلاً : ماشأن عائشة وصفوان ؟ وكيف استطاعت ان تغادر هودجها .

وهكذا يتقدم صفوان الى النبي ويدع افراد الجيش ويقص عليهم الحادثة وكيف انه وجدها منكمسة في مكانها واخذت عائشة تقص الى ابويها كيف انها ذهبت لبعض حاجتها فاضاعت عقدها ، فاخذت تبحث عنه طويلاً ، فاحتمل الناس هودجها وهم يظنون انها به لانها فتاة صغيرة ليس لها من ثقل .

هذه فتنة اشتعلت نارها ، وفتنة العرض عند العرب اشد من فتنة الحرب ، ولئن يكون من باب التزديد في الحديث ان زعمت انها كادت تأتي على الدولة الاسلامية الفتية من قواعدها .

عادت عائشة الى المدينة وعاد الجيش وقد كثرت الالسن التي تلوك حادثتها واستطارت في كل مكان ، فمرضت واشتد بها المرض واستأذنت النبي ان تمرّض في بيت ابويها فاذن لها وكان يزورها متبجها مما زاد في المأها .

فكر النبي في امر عائشة فاجتمع الى عليّ ابن عمه وذكر له امرها وكان النبي جد مهتاج النفس مضطرب البال ، فاراد الامام علي ان يسرّي عنه اولاً بقوله : النساء كثير ، كما اراد ان يطمئنه علي طهر عائشة فاشار اليه ان يسأل جاريتها عن ذلك . فسأل النبي الجارية عن حالها فقالت : والله ما اعلم الا خيراً ،

ونفت عنها قالة السوء .

* * *

وفي اليوم التالي ، ذهب النبي الى بيت الصديق واراد ان يفهم منها كل شيء فقال لها : ان كنت الممت بشيء فتوبي الى الله ، فان الله تواب رحيم .

فاجابته : والله لا اتوب الى الله بما ذكرت ابداً !! ولكنني اقول كما قال ابو يوسف : « صبر جميل والله المستعان على ما يصفون » . وهنا اخذ النبي برحاء الوحي واحمر وجهه واخذ العرق يتصبب من وجهه كأنه حب الجمان . وقد خفق قلب ابويها واضطربا اضطراباً شديدا واصفرا كالمغيب وخشيا ان تكون قد المت بشيء وان ينزل في ذلك وحي .

ولكن حين سرّي عن النبي وهو مشرق الوجه ضاحك الثغر هداً وهو يقول لعائشة : ابشري فان الله برّأك .

وانتهى النبي الى المسجد والصديق في صحبته واخذ يتلو هذه الآيات على الناس :

« ان الذين جاؤوا بالافك عصابة منك لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امريء ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره له عذاب عظيم » .

« لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين » .

« لولا جاؤا عليه باربعة شهداء ، فاذا لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون » .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما

افضتم فيه عذاب عظيم ، اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بافوا هم ما
ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم .

* * *

وهكذا نجد ان الشريعة الاسلامية تحافظ على الروح الخلقي
كل الحفظ وتفرض احترام كرامة الاعراض ، من ذلك طلب النبي
الى الذين اذاعوا الافك على الجاهيل في كل مكان ، ان يأتوا باربعة من
الشهداء ، وحين لم يأتوا بالشهداء وانما كانوا يرجعون بالظن جلدتهم جلد
القذف . ألا ان زوجة رسول الله ، محال ان يشتهب بها !!



الفصل العاشر

ان ما يمتاز به الرجال عمق الفكرة واصابتها الهدف واشتغالها على الحيوية الخالدة التي تجعلها عملية بين الاعمال . وهكذا كان النبي عظيم الفكرة عميقها قوي الحيوية الى حد بعيد جداً وعملياً الى اقصى ما عرف عن عظماء الرجال .

وليس من اليسور لغير محمد منها اوتي من فكرة ان يسيطر على مجتمعه المتفرق قبائل قبائل . وبالاخرى الاعراب المنتثرين في طول الجزيرة وعرضها . على انه فكر طويل ، وادرك ان سلطته لن تأخذ مكانتها في جزيرة العرب ، ومكة تشتمل على اعداء مناوئين هم في عرف المجتمع الجاهلي اهل حرم الله ، وسدنة بيته ، وحراس الآلهة وموئل الحبيج فكرة القضاء على سلطان قريش ، الاعداء القدماء الالقاء ،

الذين اخرجوه وصحبه من موطنه وكادوا له مرارا وحاولوا اغتياله وجبروا الجيوش للقضاء عليه حتى في دار هجرته لم تكن لتشتغل النبي وحده بل كانت تتراوح ايضاً في انفس المهاجرين ، فقد نالهم من اذى قريش وفتنتهم والعبث بهم الشيء الكثير .

اذن فالجميع كانوا على اهبة الاستعداد يرغبون كل الرغبة في فتح مكة .

كان مسجد المدينة يعج بالمصلين ، كعادته في غبشة الفجر وكان النبي كأنه الكوكب المضيء وقد استدار تجاه المصلين وجهاً لوجه ، وعرف المصلون انه يريد ان يتحدث اليهم بعض الحديث او يقص عليهم رؤيا ، فقد اعتاد ذلك احياناً

وبعد ايام كان النبي واصحابه قد ساقوا المهدي امامهم واحرموا للحج وتجردوا من كل سلاح اعلاناً لرغبة السلم ولم يحتفظوا الا بالسيوف

في اغمادها ، وكانت قلوب المهاجرين تحفق فرحاً لانهم يحسون في
انفسهم ساذنية الى مكة وحنائاً بجانب الحنان الديني واداء فريضة
الحج ، هي ارض الميلاد ، فيها انجلت التائمه وهم صبية ، وكم مرحوا
في دروبها وتسلقوا الى قمم جبالها .

هم الآن يسرون اليها ، كما حدثهم النبي في رؤياه وكيف لا
تصدق رؤيا النبي ورؤيا الانبياء وحي من السماء ؟

ما بال قريش جن جنونها وهاجت هياج الأعاصير الهوجاء ما
بالها ؟ ! . انها تريد ان تصد النبي واصحابه عن اداء فريضة الحج .
آذنهم محمد انه لا يريد حرباً ، انه جاء حاجاً هو واصحابه ولكن
قريش التي مرت على الكذب والافك ونقض العهود ، كيف تصدق
ان محمداً لم يقصد سوى الحج وهم الذين اخرجوه من موطنه وكادوا
له وحاولوا اغتياله وقتلوه في دار هجرته ؟ ! ..

كل هذه الاعتبارات جعلت قريش تبعث روادها يأتون اليها
بالخبر اليقين ، ارسلت عروة بن مسعود

يا قوم ، اني ذهبت الى الممالك ، شاهدت قيصر في دولته وكسرى
تحت تاجه ، وفوق عرشه ، وابصرت النجاشي في قصره فوالله ما
وجدت من له في قومه وبين رجاله من الحرمة والاكبار والحب
ما رأيته في نفوس اصحاب محمد .

الماء الماء الذي يتوخأ به ، تتدافع الى قطراته الايدي والسعيد
من يصل الى قطرة منه يسمح بها بحياه . لا يسقط منه ظفر ولا تنسل
شعرة الا وكنزت في نفوس اولئك الرجال . اترون ان قوماً هذا
شأنهم مع محمد ، اتاركوه لكم ؟ !

لم تكثر قريش الى حديث عروة ولم تستمسك بعراه ، بل

بعثت سواء الى محمد . وحين رأى النبي رسلها تتوالى والامر يزداد
تعقداً ، رأى ان يبعث اليهم عمر الباسل ولكنه اعتذر لشدة ولان
له بين القرشيين ثارات .

فاختار النبي صهره عثمان الاموي . ها هي قریش ترضى عن عثمان
وتفسح له المجال ليطوف حول البيت ولكنه ابى قائلاً : « ما كان
لي ان اطوف ورسول الله خارج مكة » .

وهكذا طال الجدال بين قریش وعثمان حتى ترامت الانباء ان
قريشاً قتلته وهنا جمع النبي اصحابه تحت الشجرة وذكر لهم ما
ترامت اليه الاخبار ، واخذ عليهم « بيعة الرضوان » التي مجدها الله
في القرآن بقوله : « ان الذين يبايعونك تحت الشجرة انما يبايعون
الله ، يد الله فوق ايديهم » بيعة على الموت في سبيل الحق ، بيعة على
الموت في ازهاق الباطل ، بيعة لا يراد منها العدوان ولكن الانتصاف .
سمعت قریش تجديد البيعة ، فسقط في يدها وحالا اطلقت عثمان
وعلى اثره ارسلت سهيل بن عمرو مقلوذاً .

حلقت قریش ان لا يدخل محمد واصحابه مكة هذا العام ، وهي
لا تريد ان تجرح عزتها وكرامتها وان يتسامع العرب ان محمداً
دخل مكة عنوة !!

والنبي السياسي الحكيم لم يصر ايضاً على حجه في هذا العام . هي
رؤيا رآها ، ورؤى الانبياء وان كانت حقاً فليس من الضروري
ان لا تتحقق بعد عام .

غاض المسلمين كثير اجنوح النبي للسلم واذعانه لقریش وكان يودهم
ان يبطشوا بقریش وان يدخلوا مكة عنوة . ولكنهم لم يفتنوا
الى ما فطن اليه النبي من اثر الهدنة ، واعطاء المجال للقبائل جميعاً

ان تنظر الى مساواة سلطانه بسلطان قريش لان توقيع المعاهدة من الفريقين يدل على ذلك ، واعطائهم المجال لينظروا في تعاليم القرآن ويتدارسوه ، فليس الان بين قريش ومحمد من حرب او عداوة .

* * *

- ١ - ان المسلمين والقرشيين تهادنا عشر سنين .
- ٢ - انه من اتى محمداً من قريش رده اليهم .
- ٣ - ومن يرتد من المسلمين لا ترجعه قريش .
- ٤ - والقبائل احرار فمن احب ان يحالف محمداً ومن احب ان يحالف قريشاً فله ذلك .
- ٥ - يعدل المسلمون عن اداء فريضة الحج هذا العام ويجزون في العام القابل بشرط ان يظاوا في مكة ثلاثة ايام وليس معهم من السلاح سوى السيوف في الانحاد .

* * *

انك اذا نظرت في نصوص هذه المعاهدة وفي الطريقة التي تمت بها ، تكبر العبقرية الموهوبة التي اختص الله بها نبيه .
لم يحفل النبي لعصية سهيل حين ابى ان يكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

ولم يرض الا بالكلمة المتعارفة لديهم : « باسمك اللهم » .
كما ابى ان يكتب كلمة رسول الله في هذه الفقرة :
« هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو »

وان عليّاً الحبيب الى رسول الله تخوف ان يمد يده ماسحاً كلمة « رسول الله » ولكن النبي بادره فمحاها .

ولم يكذب ينتهي النبي وسهيل من التوقيع على صك المعاهدة ،
حتى اقبل ابو جندل يعلن اسلامه ويستنجد برسول الله ، ولكن
النبي يقول له امام سهيل : عدا يا ابا جندل فاننا اعطينا القوم عهدنا
ومواثيقنا ، فاصبر انت ومن معك من المستضعفين ، فأخذ الزهو
سهيل بن عمرو ورأى نفسه كبيراً بتوقيع هذه المعاهدة بانه ربح
معركة المفاوضات وخرج منها منتصراً .

ولم يظن سهيل الى عمق هذه المعاهدة ولا المسلمون ايضاً ، فقد
خالوها اهانة لهم وغلاً ثقيلاً شد الى اغناقهم ، لم يظن اليه الا
النبي وحده .

ادرك ان جزيرة العرب التي كانت ترى ان محمداً خرج من مكة
طريداً وان قريش لا تعترف به ، وانه بالنظر اليها يعد صابئاً ،
ادرك انه تساوى واياها في مضمار السياسة وانه اصبح كفواً لها
يشاطرها سلطان جزيرة العرب والنفوذ على القبائل وانها اعترفت
بذلك من حيث لا تدري .

حقاً ان في هذه المعاهدة لانتصاراً لمحمد وفتحاً فوق كل انتصار
وفتحاً دون سهيل وقومه .

الا ان محمداً هو الذي خرج راجحاً من معركة المفاوضات
ولكن رجحانها دون ريب باذن الله .

جرت هذه المعاهدة بين قريش ومحمد ، والمسلمون حيارى
ينظرون الى قريش والغيظ يأكل من نفوسهم ، كم ودوا لو حكموا
السيف في رقاب قريش ، كم ودوا لو انتصفوا لانفسهم ودخلوا
طائفين ساعين على جثث قريش .

وما كادت تنتهي المفاوضة ويوقع الفريقان ويرون كيف ردت

النبي ابا جندل المسلم الخارج عن قريش ، حتى هاجت بهم انفسهم
وكادوا يظهرون جزعهم لولا مكانة رسول الله ولولا جلال النبوة .
على ان النبي نفسه حين امرهم بحل الاحرام وحلق رؤوسهم
تثاقفوا ولم يلبوا .

ولكنه حل احرامه وطفق يحلق هادئاً مطمئناً سعيداً بما تم من شأن
المعاهدة . فما كادوا يرون النبي يفعل ذلك وهو على اشد ما تكون
الطمأنينة ، حتى تسابقوا الى التحلل من الاحرام وازدحموا لحلق
رؤوسهم . وانهم كذلك ، فاذا ببشرى الفتح والنصر المبين تأتي
من الله - « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً » .

* * *

في خيبر من جزيرة العرب اليهود ، خيبر التي لا تبعد عن المدينة
كثيراً . واليهود الاعداء الالقاء لمحمد الذين قابلوا كل احسانه
بالكفران وفاؤوه من اول يوم ، وخيبر التي فتحت راحتها
لاستقبال بني النضير واثارت معها ثائرة الاحزاب وجمعت جزيرة
العرب لحرب محمد ، خيبر التي لا يمكن ان يتمكن محمد من جمع
حكمة العرب واسلامهم وهي ذات قوة ومال وقدرة على الكيد
والدهاء واثارة الاعداء .

خيبر التي اخذت تعد العدة لاختذ الثأر واثارة حرب شعواء ،
تحول به ما بين محمد ودعوته .

واذا كان النبي اليقظ لم يغفل عن قريش وموآمراتها فليس
من المعقول ان يتجاهل امر خيبر .

ها هو ذا انتهى من شأن مكة وكفلت له المعاهدة سكون
قريش . اذن ايها الجنود ، ايها المحاربون خذوا طريقكم الى خيبر !

بات حصن الصعب بن معاذ والمسلمون يحاصرونه أشد الحصار .
لم يعبأوا بجنوده ولا بشموخ أسواره ولا بكثرة مؤنه وذخائره .
نعم ينس بعض المسلمين حين نفذت أزوادهم وضجروا من طول
المقام ، ولكن لم تكدم أيام . بعد ذلك حتى فتح الحصن ونعم
المسلمون بما فيه من المؤن واستقوا بما فيه من العدد ، ونجازوا إلى
أشد حصون خيبر متانة وقوة ، حصن ناعم ، الحشن ، الشديد
الشكيمة ، القوي الوطأة .

واخذت الأيام تمر والمسلمون في كل يوم يحاولون فتحه ولكنهم
يرتدون عنه منخذهين . وفي صبيحة يوم أعطى النبي رايته أبا بكر
وطلب إليه أن يجدد في فتحه .

وجاهد الصديق كل الجهاد ، جاهد ما وسعه الجهاد ولكن الحصن
استعصى عليه وشمخ واستكبر ، فأب الصديق مساءً والحصن
يشير إليه .

وفي بكرة اليوم الثاني أعطى رايته عمر بن الخطاب ، وطلب
إليه أن لا يدخر وسعاً في فتحه .

ذهب الفاروق وقد عقد ما بين حاجبيه سخطاً على اليهود
وحصنهم ، وشرع عن ساعديه ، واستصرخ صرخاته في الجنود ،
واستمر يجالد ويغالب طوال اليوم ، والحصن جاثم في مجثمه كأنه
أسد رابض شرع أنيابه ، وفقر فاه ، لا يكاد يقترب منه أحد إلا
فتك به والتوى عليه . ومساء عاد عمر وجنوده ، والحصن يمد لسانه ،
فحين شاهد النبي عمر ، قال : غداً أعطي الراية لفتى يحبه الله
ورسوله ، ليس بقرار يفتح الله عليه الحصن .

اضطجع المجاهدون في مضاربهم ، وكل يحلم بفتح الحصن على يديه ،

وكل يأمل ان يكون هو ذلك الرجل الذي يحبه الله ورسوله .
وما انتهى النبي من صلاة الفجر الا وكانت الاعناق متطاوله
اليه والعيون متجهة صوبه ينتظرون من سيجعل الله على يديه فتح الحصن
— عليّ ! عليّ !

ينظر المسلمون جميعاً شطرا ابي الحسن ، وينتصب عليّ ويتجه
صوب النبي وقد وضع يده على عينيه لشدة وطأة الرمد .

يعطيه الراية ويبشره بالفتح ويأمره بالذهاب وعليّ يستمع ، ولما
تزل يده على عينيه . ثم طلب اليه ان يدنو منه فمسح له على عينيه ،
فارتد بصيراً كأحسن ما كانت عيناه جلأً وصفاً فيستطير ابو الحسن
« اسد الله » فرحاً ويمنطي صهوة جواده

ما بال الحصن يبدو في هذا اليوم متطامناً منخدلاً قد انكمش
على نفسه فرقاً ؟ ؟ ؟ !!

لقد تراءى جناحا النسرين سدان فضاء الحصن بالشكيمة والبأس ،
ويملاكه رعباً ويرجانه رجة عنيفة كادت تكبه على قرنيه ، رجة
زلزلته زلزالاً .

اقترب البطل علي وملاء ثوبه العزيمة ومعجزة النبوة وبشرى
الفتح ، اقترب بهيره وزئيره وجنوده من خلفه والراية ترفرف في
يديه ، راية النصر المؤكد والفتح المبين .

في هذا اليوم تدرع مرحب ما وسعته الدروع وتسربل بالحديد
وامسك اسلط سيوفه واطول رماحه . وخرج معتزاً ببطولته وقوته
وجبروته .

اين انت يا مرحب من عمرو بن ود العامري اما بلغك انه جندل
على الثرى ؟ اما وافتك الانبياء ان الثرى ارتوى من دمه ؟ !

هاج مرحب ، وفي نفسه انه زلزل الدنيا بهياجه ، وصرخ ، وفي
عقيدته انه القى عليها على الارض ، ورفع سيفه وهوى به وهو لا
يشك انه اصاب الهدف ومادرى انه القى شطرين على الارض ، وان
اسلأه مرت عليها الفرسان واجتازتها الى الحصن .

ها هو ذا الحصن ترفرف فيه راية النبي ، تملأه طمأنينة الاسلام
وروح الحق والعدل وتسمع اركانها كلمة التكبير :
الله اكبر ! الله اكبر !

* * *

تم فتح خيبر وانقضى الامر ، وأمن النبي على دولته بأس
اليهود وموآمراتهم فقد قضى عليهم سياطياً .

وظن المسلمون ، بل اعتقدوا ، ان النبي سيخرجهم من خيبر
كما اخرج اخوانهم بالأمس من يثرب ، ولكن العبقرية السيامية
وروح العمار والنهضة والتجديد التي تملأ نفس النبي ازاله من
انفس اصحابه كل ما ظنوا واعتقدوا !

ها هو ذا يبقى خيبر لأهلها ، يبقيا لأنها مصدر حاصلات
اقتصادية لا يستهان بها في جزيرة العرب ، يبقيا على شرط ان
يدفع المزارعون شطر حاصلاتهم .

ولا ريب ان هذه المعاملة دلتنا على ان محمداً يبنى ولا يهدم ،
وبعمر ولا يخرب ، دلتنا ان محمداً اكبر مشرع ، واكبر مجدد ،
واكبر بان للنهضة الانسانية العامة .

* * *

وفي خيبر كان للنبي زواجه من صفية بنت كنانة بن الربيع زعيمها
وفي زواجه منها ، تأليف لأهلها اذ اصبحوا اصهاراً للرسول الله .

وفي خير ايضاً دست السم زينب بنت الحارث في ذراع وقدمته
 في شاة ضيافة للنبي فيحين علم النبي بما صنعت وحاول عليّ ان
 يقتلها سألها النبي : ما حملك على صنع هذا . - قلت ان كنت نبياً
 فسيصمك الله وان كنت ملكاً تأثرت لقومي .
 فسامحها النبي واطلق سراحها .

* * *

رأى جيش المسلمين وهم عائدون من فتح خير جماعة تتجه
 صوب المدينة يقدمهم بعض الفرسان ، فجدّ النبي صوب اولئك
 القوم وجدّ اولئك القوم صوب النبي ، وما التقيا وجهاً لوجه حتي
 وقعت عيننا جعفر على النبي ، فسارع اليه محتضنه ويبكي من شدة
 النرح ، فاحتضنه النبي واشتم فيه رائحة عمه الشفوق ابي طالب وابن
 عمه عليّ وهو يقول :

لا ادري باي النصرين انا مغتبط ، ابفتح خير ام بعودتك يا جعفر ؟!
 اجل ، سر النبي بعودة جعفر والمسلمين الذين كانوا معه في الحبشة
 وآلمه سوء حالهم فاقسم لهم شطراً من غنائم خير ترفيهاً لعيشهم
 واغاثة لهم ، كما اراد ان يواسي ام حبيبة بنت ابي سفيان ، اذ توفي
 عنها زوجها في الحبشة .

وفي الزواج من ام حبيبة من حنكة السياسة وعمق الفكر ،
 ومرضاة ابي سفيان زعيم قريش وقائد حروبها والعدو اللدود لمحمد
 الكثير الكثير .

فان ابا سفيان بعدها طفئت جذوة حداثته وشعلة غضبه واحقاد
 واصبح قريب المأمل ان يكون في يوم من المسلمين .
 هذه سياسة محمد وتديبره اتاه الله نبيه وخصه به .

الفصل الحادي عشر

لم يكن محمد رسولاً لقومه وجزيرة العرب فحسب ، وإنما هو رسول عالمي ارسل الى الانسانية جمعاء . « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » .

فكان لا بد له ان يتأتى بكل الاسباب السياسية والدعائية لكي يؤدي واجب الرسالة العامة .

ان الدولة الاسلامية الأولى التي بنى قواعدها بيده وشيد اركانها لا تزال وليدة في المهد ، لم تبلغ بعد رتبة الدول الكبرى المجاورة لجزيرة العرب . وليس في مقدورها ان تقاوم تلك الدول لدى اهبتها لاكتساح جزيرة العرب والقضاء عليها .

ولكن

الرسالة ! الرسالة ! هي واجب آلهي مقدس ، لا بد من التبليغ مهما يكن الامر ومهما تكن الظروف والمناسبات .

هكذا مهد النبي للدعاية الاسلامية ولتأسيس دولته بفكرة ارسال السفراء الى هاتيك الدول واطلاق الدعوة الاسلامية اليهم . وهي فكرة سياسية دبلوماسية خطيرة لها شأنها وآثارها في التاريخ الاسلامي .

واليك جملة انبياء السفراء والرسائل التي كانوا يحملونها الى رؤساء الدول والملوك فيما يأتي من صفحات .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس
« سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد ان لا آله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله، ادعوك بدعاية الله فاني انا رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . اسلم تسلم فان يايت فلانما عليك اثم المجوس » .
حمل هذه الرسالة الخطيرة السفير الاول عبد الله بن حذافة الى كسرى ابرويز الملك الثالث والعشرين اشهر ملوك الاسرة الساسانية وهي رسالة تشتمل على طرح عبادة المخلوقات واشراكها في عبادة الله الخالق او اتخاذها آلهة ، كما تشتمل على طلب دخوله وقومه في الاسلام . والنبي لم يجعل المسؤولية في عدم دخول الشعب في الاسلام تقع على عاتق الشعب نفسه وانما تقع على عاتق كسرى ذاته حيث الملك لم يكن ديموقراطياً وانما كان استبدادياً ليس للشعب من كلمة تجاه ارادة الفرد المطلقة . وانك تجد ايضاً ظاهرة جديدة لم تعرف بعد في تلك الازمان السحيقة ، وهي طرح الالقاب الكاذبة التي يفرضها الملوك لانفسهم ويوجبونها على شعوبهم ترفعاً بانفسهم واستكباراً ان يكونوا كبقية البشر .

« من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس »
لم يعتقد كسرى ان تصل الى اذنيه هذه الكلمة الا وهي ملففه في افواف الحرير الناعم ، ملك الملوك ، سيد العالم ، وهكذا .
من اجل ذلك لم يكذب بسمع فاتحة الرسالة « من محمد رسول الله » حتى جن جنونه ، كيف هذا الرجل يقدم اسمه عليه ؟ وبعد ان سمع

اسمه مجرداً من كل الالقاب الكاذبة اختطف الرسالة بسخط وغضب
ومزقها وطرحها على الارض وصرخ صرخاته المزعجة في القصر
وامر حالاً ان يرسل الى عامله بازان في اليمن ان يؤمر بان يبعث
جيشاً الى هذا الاعرابي الدعي ويأتوا اليه برأسه .

كان النبي يتحدث الى الرسولين الذين انفذهما بازان : « ان
كسرى ابرويز قد عدا عليه ولده شبرويه فقتله انتقاماً من الله ، وقد
ملأت انوار النبوة نفس هذين الرسولين فاسلما وحيثئذ جعلهم النبي
بما اوتى من تأييد الهي ، ونظر بعيد ، رسولين داعيين له تجاه بازان .
وما وصل الرسولان الى اليمن حتى جاءت الانباء تؤيد الوحي
معلنة قتل ابرويز بيد ولده شبرويه كما اخبر رسول الله . وشبرويه
هذا لم يكن كآبيه فظاً غليظاً وانما كان رفيقاً ليناً ، امر بازان ان
يتفرق الى النبي وان يحسن معاملته ما استطاع الى ذلك سبيلاً فاسلم
بازان وشعبه واصبح مرتبطاً بالنبي .

* * *

وسفراء النبي كانوا من الرجال السياسيين ، ذوي الحنكة والخبرة
بشؤون الدول ، الذين مروا بالبلاد في متاجرهم ، وعرفوا الناس .
وكما كان النبي يختار للدعاية والتبشير الرجال الذين سهر على تعليمهم
الدين والكتاب ، كذلك كان يختار سفراءه من خيرة الرجال
السياسيين .

هذا دحية بن خليفة الكلبي المعروف بذكائه وفطنته وحسن
سياسته وجماله الرائع ، اختاره النبي ليكون سفيره الى امبراطور
الروم هرقل .

بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم

« سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد ، فاني ادعوك بدعاية الاسلام ، اسلم تسلم يؤتك الله اجرک مرتين ، فان توليت فانما عليك اثم الاربسين : يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » .

انك تجد في هذه الرسالة ايضاً القاء المسؤولية ، فيما اذا حيل بين الشعب « الاربسين » وبين الروحية الاسلامية التي ارادها الله لاسعاد البشرية ، انما تقع على عاتق قيصر وحده ، والدعوة الى الرجوع الى عبادة الله المشتركة بين الجميع ، وطرح تأليه سواه من البشر . وهرقل لم يكن كقيصر في غلظته وجفائه وحماقته ، بل انعم في الرسالة طويلاً ولم يقل شيئاً مكروهاً بل اكرم السفير واحسن لقياءه ومنصرفه .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط

« سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد ، فاني ادعوك بدعاية الاسلام ، اسلم تسلم ، يؤتك الله اجرک مرتين ، وان توليت فانما عليك اثم القبط ، ويا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » .
وهذا هو السفير الثالث حاطب بن ابي بلتعة الذي اختاره النبي

لمفاوضة المقوقس عظيم القبط .
 والمقوقس لم يكن راضياً عن حكم الرومان لمصر ، ولم كان
 يتمنى ان يجد خلاصاً من سلطتهم ، من اجل ذلك اكرم وفادة السفير
 واثني على النبي وبعث اليه بالهدايا والطرف وجاريتين كريمتين مارية
 القبطية التي ولدت ابراهيم ابن النبي الذي لم ينعم به طويلاً ،
 والاخرى التي تزوجها من شاعره حسان بن ثابت .
 وقد اكتسب النبي بتزوجه من مارية القبطية ، ودّ المصريين
 والقرى اليهم .

* * *
 بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى النجاشي عظيم الحبشة سلام
 « اما بعد ، فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو الملك
 القدوس السلام المؤمن المهيمن ، واشهد ان عيسى بن مريم روح الله
 وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من
 روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه ، واني ادعوك
 الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وان تتبعني وتوقن
 بالذي جاءني فاني رسول الله واني ادعوك وجنودك الى الله عز وجل
 وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى »
 هذا هو السفير الرابع عمرو بن امية الضمري يتقدم الى النجاشي
 ملك الحبشة حاملاً رسالة النبي اليه . وما كاد النجاشي يشاهد الرسالة
 حتى نزل عن عرشه ، وجلس الى الارض اجلاًلاً واحتراماً لها
 وبعد تلاوتها اعلن اسلامه .

* * *
 بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى الحارث بن ابي شمر

« سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، واني ادعوك
 ان تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك » . -
 وهذا هو السفير الخامس يحمل الرسالة الى ملك الشام العربي
 من قبل الرومان . انك تجد في هذه الرسالة تهديداً بجلعه عن الملك
 ان لم يستجب ولكن هذا الرجل الذي كان صنيعه الرومان سحق
 وهدد اظهاراً لساداته انه موال لهم . وانذر انه سيبعث الى محمد
 بجيش يقاتله .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم
 من محمد رسول الله الى هودة بن علي

« سلام على من اتبع الهدى واعلم ان ديني سيظهر الى منتهى
 الخف والخافر فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك » .
 هذه هي الرسالة الثانية الى ملك عربي يحملها سليط بن عمرو
 العامري وفيها اعلانه بان الامة العربية واحدة وان الاسلام سيعمها
 فان اسلم ابقاه على ملكه .
 فاستشاط هودة غضباً وهزيء بالدين الجديد وتنكر له . وقيل
 بل اجاز الرسول واحسن وفادته .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم
 من محمد رسول الله الى المنذر بن سلوى

« اسلم تسلم ، واني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو »
 قدم هذه الرسالة السفير السابع الى ملك البحرين فسر كثيراً
 بها واعتنق الاسلام وامر شعبه بذلك فمنهم من اسلم . ومنهم من ظل
 على يهوديته وجوسيته .

وقد ارسل الى النبي يستنبه ما يفعل هؤلاء الذين لم يسلموا
من اليهود والمجوس ، فكتب اليه النبي ان يدعهم وما اختاروا
لانفسهم من دين وان يقبل منهم الجزية .

* * *

في السنة السابعة للهجرة ، المقابلة لعام ٦٢٨ م كان انفاذ السفراء
الى دول العالم في عصر النبي . وكان هذا الانفاذ وثباً بالرسالة من
جزيرة العرب الى امم الارض جميعاً .

وفي هذا يكون النبي قد وقف بدولته الفتية الى جانب اعظم
دول الارض سلطاناً ووسعها ملكاً ، الى جانب دولتي فارس والروم

* * *

جاءت اشهر الحج ترفرف بافتن الاماني وامحج الاطراف الى
نفوس المهاجرين فقد تركوا هنالك ملاعب الصبا وذكريات الشباب
واحلام الفتوة ، تركوا هناك منازلهم ودورهم واهلهم ، فما اشد
شوقهم الى مكة .

وهؤلاء الانصار الذين حرموا اداء الحج فسد طويلاً لالشيء
سوى انهم آمنوا بالاسلام ، هؤلاء سيحججون في هذه المرة وسيلبسون
نداء الله ، ولكنهم لا ينادون ولا يلبون سوى نداء الله وحده .
لييك اللهم لييك ، لا شريك لك لييك ! وان النعمة والحمد لك وحدك !
ثم انك تجدد اثر الخيطة العسكرية تتجلى في الكتيبة المسلحة
التي امرها ان لا تتجاوز حدود الحرم خشية غدر قريش فيما لو فعلت
ذلك . واما النبي واصحابه فقد ذهبوا الى مكة محرمين ، ليس لهم
من السلاح سوى السيوف في اغمارها كما جاء في نصوص المعاهدة .
ان الدارس للمقاصد التي جعلت النبي يعدد زوجاته يجد فيها

عمقاً كبيراً وسموا. فاحياناً يكون سياسياً ، واحياناً يكون حربياً
واحياناً يكون دفعا لشر ، واحياناً يكون تألفا لقوم او مكافأة على
خدمة او ربطا لا واصر القربى بينه وبين كبار اصحابه .

وهذا هو الفرض العسكري يتجلى في زواجه من ميمونة خالة
خالد بن الوليد المرأة المسنة التي لم يكن لها شيء من مغريات الزواج
سوى قربها من خالد .

اراد النبي ان يتألف القائد البطل خالد بن الوليد الذي اذاق
المسلمين المرّ في وقعة احد ، اراد ان يسوقه الى هداية الله وان
يجعله سيفاً له مجاهداً في سبيله .

وفعلًا لم يمر سوى زمن يسير ، حتى جاء خالد النبي مسلماً وتبعه
عمر بن العاص فلتاح مصر وداهية سواس الاسلام .

* * *

قد رأيت ما فعله الحارث بن ابي شمر ضنيعة الرومان وملك
الشام وكيف قاوم الدعوة الاسلامية وهددها بانزال جيش لهدمها
في مستقرها . وها هو رسول الله يعاود اليه المفاوضين فيرسل اليه
سفيراً ، ولكن لم تكدرى جنود الحارث المفاوض الجديد قريباً من
بصرى حتى هجموا عليه بسيوفهم ، وتركوه على الارض اسلاء .

عجيب جداً ، حادثتان مروعتان لا تتذران بخير من جانب
قوم من العرب يقفون في وجه باعث نهضتهم وجامع كلمتهم هذا
الموقف الشاذ الحشن الذي لم يقفه امبراطور الرومان نفسه . الا
ان النبي اليقظ لم يدع للحارث فرصة ارسال جيشه الى المدينة بل
بادره بارسال جيش عربي جديد من صميم الجزيرة يبلغ عدده ثلاثة
آلاف مقاتل . وقد جعل القيادة لزبد بن حارثة فان قتل فالقائد

جعفر بن ابي طالب وان قتل فالقائد عبد الله بن رواحة . ثم ترك الامر للمسلمين يختارون من يريدون .

لم يكد زيد بن حارثة يحيم بجيشه الصغير قريباً من مؤتة ويعسكر هناك حتى شاهد جيشاً عرمرماً يسد الفضاء ، من العرب والروم يبلغ المئة الف مقاتل . ولم يكن في حسبانته ان العرب والروم قد اعدوا كل هذا الجيش الكبير . ولكن ، ادرك المسلمون معجزة رسول الله وانه ما ارسلهم الا لصد هذا الجيش .

درس زيد واركان حربه من كبار القواد مقدرات العدو العسكرية ، فوجدوا انفسهم غير قادرين على مباشرة حرب مع هذا الجيش قبل ان ياتيهم المدد ، فقرروا اخبار رسول الله .

ولكن زيداً اخذته الحماسة الاسلامية واشتعل في قلبه الايمان ورأى من الصغار ان يقف متخاذلاً امام الجيش الكبير فألقى كلمته على المسلمين ، التي الهبتهم حماسة : « يا قوم ، والله ان التي تكرهون من الشهادة هي التي خرجتم تطلبون . وما نقاتل الناس بكثرة عدد او عدد بل بالدين الذي اراده الله للناس جميعاً ، فاهلوا الى الجهاد فان التي تنتظرونا احدى الحسينين : الشهادة او الغلبة والنصر .

اشدد اوار المعركة . . . وظهر المسلمون القلائل من البسالة والتضحية والجراءة على العدو ما اظهروا ، وهذا قائدهم زيد بن حارثة يقدمهم والراية في شماله والسيف مسلط في يمينه وهو ينادي : الله اكبر ! الله اكبر ! وقد تكاثف عليه ابطال العدو من الروم والعرب يريدون الفتك به والقضاء عليه .

وما سقطت عليه الضربات بعد ان اثنى الجراح في العدو وكاد يسقط عن جواده قتيلاً حتى هجم جعفر بن ابي طالب البطل المغوار وتلقى الراية قبل ان تصل على الارض بيده وقاد الجيش بمحنة وقوة وطفق يقاتل العدو ويجالد والابطال تقصده وتريد القضاء عليه وهو يجالده ويغالب ويتعمق الجيش حتى انقضت على يده التي يحمل بها الراية ضربة سيف اطارتها ولكنه قبل ان تهوي الراية على الارض تلقاها باليد الاخرى وهو يزجر زجرة الاسد الهصور ، ولكن اليد الاخرى ايضاً بترت بضربة سيف فاستطرد جواده واحتضن الراية بكلتا ذراعية وضماها الى صدره وهو غاضب حتى ، والقتال على اشد ما يكون هولاً ، والغبار قد سد افاق السماء . وما كاد هوي جعفر قتيلاً حتى تقدم عبد الله بن رواحة وما دام طويلاً حيال كثرة العدو حتى سقط في الميدان .

وهنا سارع المسلمون فاختاروا البطل العظيم خالد بن الوليد . فكرر على العدو وتناول الراية واخذ يصدر اوامره في تنظيم الجيش ومتابعة المعركة حتى ارخى الظلام سدوله .

لم يكن خالد بالقائد المشهور ولكنه كان على جرأته وبطولته النادرة كبير الحنكة ، واسع الدربة العسكرية ، قديراً على اكتساب المعارك ، يعطي لكل حالة ظروفها المناسبة منتزعاً النصر من بين مخالب العدو . من اجل ذلك قضى الليل وهو يضع الخطط الاولى للانتصار المقبل وقد اجرى مناوراته العسكرية ليخيل للعدوان مدداً من اعماق الجزيرة قد وافى اليه كتائب كتائب ليلاً ، وطفق يضيف جبهة القتال ، وما كاد الفجر يلوح حتى رأى العدو نفسه حيال جيش جديد مترامي الاطراف في تنظيم محكم دقيق .

وهكذا بدأت المعركة وخالد يقود الجيش بمبقرته العسكرية
الفاتحة ودربه النادرة وقوته التي لا تقهر ، حتى بقي الذعر في قلوب
الاعداء وتخاذلت وتضاءلت جرأتهم على المسلمين واستكانوا امام خالده
وما كاد ينتهي النهار حتى وقف القتال وكان اكبر ما يتمناه
العدو هو وقف القتال .

وهنا استطاع خالده ان ينسحب ويعود بالجيش سالماً الى المدينة
بعد ان كاد ان يقضي عليه . وكل اثر خالده في هذه المعركة ان العدو
لم ينل من الجيش الاسلامي ما قدره .

* * *

حزن رسول الله لموت القواد الثلاثة وبالاخرى موت ابن عمه
جعفر الذي لم ينعم بالحياة طويلاً بعد ان ثاب من هجرته التي قضاه
في الحبشة . حزن بمقدار ما سر بانتصار خالده وحسن قيادته وقدرته
على انتشال الجيش الاسلامي من اشواق الموت ، اجل ، سر وقرت
عيناه واطلق من هذا اليوم على بطل المعارك الاسلامية الكبرى
المقبلة ، اسم « سيف الله » !

ما اجمل الذين لا يفكرون في الاسباب الدقيقة التي من اجلها
يتزوج النبي بعد ان تجاوز الخمسين من عمره من كل اولئك النساء ،
اما ينظرون الى هذا اليمن والنصر والى هذا التوفيق الذي استطاع
ان يكسبه خالده للمسلمين ، اما بعد اسلام خالده بعد زواج النبي
بخالته ميمونة من اسمى المقاصد الشريفة التي يريد بها رسول الله
لانتصار كلمة الله . الا ان محمداً الشاب قد قضى ريعان الفتوة
وعنفوان العمر ، مكتفياً بزوجه العجوز حتى تحطت به الكهولة
وهو فاعم راض لا يرجو الا بقاءها .

الفصل الثاني عشر

قد انحازت الى حلف النبي خزاعة لدى تسجيل صك معاهدة الحديبية ، كما انحازت بكر الى حلف قريش . ومرت الايام والاشهر وقريش وحلفاؤها مستمسكون بنصوص المعاهدة يحافظون جهدهم على الامن ، ولكن قريش التي لم تعتد الثبات على عهودها طويلاً والتي كان يغيظها ما تسمع من الانباء عن محمد ما كادت تسنح لها الفرصة لنقض العهد حتى انتهزتها .

هذه هي حليفتها بكر تضرب الحزاعيين حلفاء محمد وتفتك بنفر منهم ، وقريش تمدها بالسلاح والرجال . و ارادت قريش ان تعبت بالنبي وان تعتذر عن نقضها للعهد فتحفظ بعدم مساعدته لحلفائه في الوقت الذي ضربت الحلفاء ليروا عدم قيمة تلك المحالفة .

ولكن محمداً اليقظ ، الذي كان يؤلمه بقاء الوثنية في مكة المسيطرة على البيت الحرام ، ومشاعر الحج المقدسة ، والذي كان يود ان توفّر راية الاسلام هناك ، لولا صك المعاهدة الذي يفرض عليه ترك معالم الحج السلطان قريش ، قد وجد هذه خير مناسبة ليعد العدة لفتح مكة واقتحام قريش .

ها هو ابو سفيان زعيم قريش وقائدها الاكبر في مواقعها يدخل المدينة وفي ظنه ان الناس سيهرعون الى استقباله وطلب رضاه ، يدخلها فلا يجد من يلتفت اليه او يحذره حتى ابنته التي هي اعز الناس اليه واحبهم ، ما كادت تراه حتى طوت في حجرتها الفراش عنه فعجب وقال : اطويته رغبة به عني او رغبة بي عنه . فاجابته بحماسة : انه فراش رسول الله وانت رجل مشرك فلا ينبغي ان

ثجلس عليه . فينصرف مخذولا ويزداد خذلاناً وذلة حين يرفض أبو بكر ان يتوسط له لدى النبي فيذهب الى علي فكان أشد نفوراً من ابي بكر فلم يجد بداً من ان يلقي محمداً بنفسه .
فيعتذر اليه ولكن النبي رفض اعتذاره فعاد الى قومه بخفي حنين يحمل على عاتقه الحية والذلة والانكسار وسوء الحال .

* * *

تدافعت قریش حول ابي سفيان في دار الندوة بعد عودته من يثرب ليروا اثر مفاوضته لمحمد . وها هو ذا يقص عليهم ما شاهدته واعتراه من الخذلان ويندروهم ويبالغ في انذارهم . وقد قلقت قریش لما سمعت وساء حالها وندمت لنتقض المعاهدة ايما ندم .
عما قليل تتداعى آهتها وتطرد من جوف الكعبة ، وتطرد من بيت الله ، اجل ، وعما قليل يمتلك محمد واصحابه مكة ويملاؤن سهولها وبطاحها وشعاب جبالها فلا يصبح لهم من امر او شأن .
ما هم مانعون تجاه كل ذلك ؟ ! ليس لهم سوى الاعتصام بالصبر وانتظار المفاجئات .

ها هم ذا يبعثون روادهم لتسقط الانبياء وهو ذا يمر شهر واحد والقلق يملأ ليلهم ونهارهم والخوف يقطع من اوصالهم . وفي ليلة ظلماء يخرج ابو سفيان ومعه صديقه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء ليطمئنوا على تخوم الحرم . ولكنهم ما كادوا يتجاوزون ارباض مكة ويشرفون على الصحراء الواسعة حتى تقع انظارهم على مضارب تسد الفضاء ونيوان توقد هنا وهناك وحتى تغشاهم الجلبة والضوضاء وزغاء الاباعر وثغاء الشياة .

يلتفت ابو سفيان الى صديقه :

- ويحي ، ما ارى ؟ ما ارى ؟ لمن هذا المعسكر الضخم ؟ !
- هذه خزاعة جاءت تحارب .
- خزاعة ؟ ! خزاعة اخذل واذل ان يكون لها مثل هذا
المعسكر الكبير .

ثم يتقدمون لاكتشاف امر هذا الجيش العرمرم رويداً رويداً ،
واذا هم بالعباس عم النبي ينادي ابا سفيان وقد عرفه .
- ابا حنظلة ؟ ! اراك هنا ، ما جاء بك ؟
- ابا الفضل ؟ ! هو انت ؟ !

- اجل ! اجل ! يا ابا حنظلة هو انا ذا وقد اسلمت وهؤلاء
جنود محمد . هلم لاجمعك بمحمد .

وبشير ابوسفيان الى صاحبيه بالعودة الى مكة لاجبارهم بما
شاهدوا ويشب الى ظهر بغلة العباس فتطرد بهم بين الحيام والمضارب
وما كاد عمر يشاهد ابا سفيان خلف العباس حتى صرخ به : قف
يا عدوا الله والله لاقتلنك شر قتلة .

ولكن العباس اعلن انه دخل في جواره ويتابع سيره حتى يبلغ
مقر النبي فيترجل هو وابوسفيان ويدخل به اليه وحوله جم غفير
من كبار المهاجرين والانصار فيسلم عليه ويرد النبي تحيته وقد ذكر
العباس لرسول الله انه اجاره فقبل جواره عمه وطلب اليه ان يريجه
الليلة وان يأتي به صبحاً .

وانتهى النبي من صلاة الفجر وجلس الى اصحابه ، فاذا ابوسفيان
يجانب العباس فيطلب اليه الايمان برسالته فيطلبكم .

وانك تعجب لسياسة النبي وقدرته الفائقة في تأثيره على كبار
الرجال العظام . انه لا يأمر بقتل ابي سفيان كما كان يود اصحابه ،

اذ في قتله القاء لبذور العداء في نفوس اتباعه وآله . ولكنه يقترح
 على العباس ان يقف به في مضيق الوادي ليشاهد الجنود حين تمر .
 — ما ارى ! ما ارى يا ابا الفضل ؟ لا احسب احداً في قدرته
 ان يقهر هؤلاء ، ارى ان ملك ابن اخيك اصبح ضحماً .
 — لا ، لا ، ليس هو الملك ولكن هي النبوة يؤيدها الله بالمؤمنين
 ويؤاتيها النصر من عنده .

وانطلق ابو سفيان الى قریش يقص عليها ما شاهد .

* * *

عباً النبي لفتح مكة جيشه تعبئةً عسكرية دقيقة جعل الجيش
 اربع فرق وفرض على كل منها ان تدخل مكة من ثغر من ثغورها
 الاربعة ، كما فرض على الجيش ان يدخل هادئاً وادعاً لا يقاتل الا
 من قاتله فحسب .

دخلت الفرق الاربعة مكة في آن واحد .

ولم يلاق الجيش اية مقاومة ما خلا الذين مرّ بهم خالد فقد رشقوه
 بنبلهم فقتلت اثنان من المسلمين ، فهجم عليهم خالد وقتل منهم
 جماعة وفرّ الباقيون .

ودخل محمد مكة محني الرأس خاشعاً لربه ، فرحاً بنصره ، غير
 مزهو ولا مستكبر ، عالماً ان كل ذلك اياه من الله ، وما كاد يدخل
 المسجد الحرام ، حتى التفت الناس حوله وجميع قریش وهي تريد ان
 تفهم ما هو صانع بها بعد طول عداوتها وشدة نقيمتها وكثرة اذائها
 واستباحتها دماء المسلمين يمجوشها الجراحة مراراً ، فاذا هو ينظر
 اليها بحنان ويتلو عليهم هذه الآيات :

« انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك

وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك
الله نصراً عزيزاً » .

ثم يقول لهم : ما انا صانع بكم ؟ فيقولوا : اخ كريم وابن اخ
كريم فيقول لهم : اذهبوا فانتم الطلقاء !!
انك لن تجد قائداً في العالم مها بلغ من جلال الانسانية ، ورفعة
العلم ، وذروة الخلق ، يخاطب اعداءه الذين استباحوا قتاله بعد
ما استباحته قريش من دماء المسلمين يخاطبهم حين ظنوا انه القى
عليهم قيود السلطة والجبروت وانهم اصبحوا اسرى بين يديه ،
يخاطبهم منكراً انكم اسرى او مقيدون قائلاً :
اذهبوا فانتم الطلقاء ...!!!

* * *

وقد اسلم قريش جميعاً وعمّ المسجد الحرام رنة الفرح والمسرّة
وتنادى الناس في كل مكان بلا اله الا الله .

* * *

ترامت الانباء الى ثقيف ومجاوريتها من القبائل بما تم من فتح
مكة واسلام قريش ، وادركوا انه لا بد وان يفاجئهم كما فاجأ
قريش ، وقد كانوا شركاً في عداوة محمد وخصومته .
انهم يعدون العدة في الطائف وغيرها وقد استشاروا جميعاً
دريد بن الصمة المشهور لديهم على كبر سنه باصاغة الرأي ، وجودة
الفكرة . وقد صدق ظنهم ، فها هو النبي يعسكر في حنين في اثني
عشر ألفاً ، اي بجيش لم تشهده العرب من قبل .
عسكر في حنين وهي تبعد عن مكة ثلاثة فراسخ ، وهو لا

يقصد ان يفاجيئهم الاعداء ليلاً ولكن الاعداء انتهزوا فرصة نزول الجيش في الوادي فاحاطوا به في الجبال ليلاً وشرعوا يضربون الجيش بالسهم والحجارة قبل انبلاج الفجر لدى استعدادهم للسير الى الطائف .

فما اضطرب امر الجيش وفر الاعداء الذين اسلموا قريباً ولم يتمكنوا الايمان في قلوبهم ، ولولا ثبات النبي والمسلمين القدامى من المهاجرين والانصار الذين تنفوا حوله في ساعة العسرة ، واقتحموا الاعداء وهم في مكائدهم ، لغضى على الاسلام .

* * *

اكتساب الحرب لا يكون بكثرة الجنود ولا بوفرة العدد ولا بصهيل الخيل ولمعان الاسنة ، وانما بالايمان والصبر والثبات والتضحية والرغبة في الموت والحذر واليقظة وانتهاز الفرصة .

وهذا الذي نص عليه الوحي الاسلامي :

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين اذ اعجبتمكم كثرتكم فلم تغني عنكم شيئاً وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » .

« ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل الله جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » .

* * *

ها هو ذا النبي وجنوده يحاصرون الطائف وقد حفرت ثقيف وهوازن الحنادق بين الحصون فلم تستطع الجنود الاسلامية احتلال الطائف وكانوا كلما اقترب الجيش اخذوا يطلقون عليه السهم ،

فهم جد بصيرون بالرمي مما جعل النبي ، القائد الخبير الا يظل يجنوده
حيالهم خشية التداعي والملال وضعف معنوية الجيش . فترجع الى
الجعرانة حيث جمعت الغنائم والاسرى .

وكان عدد الاسرى ستة آلاف وبلغت الغنائم ٢٤٠٠٠ بغيراً
و ٤٠٠٠٠ شاة و ٤٠٠٠ اوقية فضة .

وبعد ايام ظهرت حكمة تراجع النبي فان القوم اخذوا يفكرون
في اسرارهم واموالهم وليس لهم من طاقة ان يقاوموا الجيش وهم
خارج الحصون ، فرأت هوازن ان تسلم وقد بعثت الى النبي وفدها
معلنين الاسلام طالبين اليه ان يطلق الاسرى ويرجع اليهم الاموال
فأشار اليهم النبي ان يختاروا احد شيئين : اما الاسرى واما
الاموال . فانه يعسر على الجيش المكافح ، الباذل من ذات نفسه
وماله ان يتخلى عن كل شيء .

رجع الوفد الى انطائف وبعد عشرة ايام عاد مؤثراً الاسرى
على الاموال اذ في الاسرى نساؤهم واطفالهم وامهاتهم .

* * *

وقبل ان يعود النبي الى العاصمة نظم شؤون مكة من الناحيتين
السياسية والدينية وولى عليها اسيد ثم عاد مظفراً منتصراً مستبشراً
بنصر الله وفتحه .



الفصل الثالث عشر

انتهى الآن فتح مكة واصبح محمد حارس المواطن المقدسة وحاميتها . اصبح في نظر القبائل العربية جمعاء ، سيد الجزيرة المطلق وحيال الدول المجاورة لبلاد العرب .

وانك ترى في هذه الفترة التي تلت فتح مكة وعودة النبي الى العاصمة الوفود تتوي من كل فج من فجاج الجزيرة تقدم اذعانها وتعلن اسلامها راضية مطمئنة فرحة بما تم على يد محمد للعرب من جمع الكلمة وتأسيس الدولة . فمحمد لم تلد مثله النساء فهو ائمن مولود جاءت به جزيرة العرب لم تعرف مثله لا من قبل ولا من بعد فهو آية الله في الارض وحجته الناطقة .

ومن الذين وفدوا على رسول الله وتلقوا عنه دروس الدين الجديد عروة بن مسعود امير ثقيف ، ولما ظهر به من الخماس للاسلام وفهمه له انتدبه النبي ليكون واسطة لاسلام ثقيف وتعليمهم اياه . ولكن ثقيفاً غضبت على اميرها كل الغضب حين الفته يتنكر لدين ابائه ويتندر بأهنتها ويتفكه بتقاليدهم في مجالسهم ، غضباً جعلهم يفتألونه .

ومنهم مسيلمة بن حبيب البامي الذي لم يستقر بعد عودته الى بلاده حتى طفق يعلن انه نبي مرسل وقد بعث الى محمد برسالة يقول له فيها « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله »

« اما بعد فاني قد اشركت في الامر معك وان لنا نصف الارض ولقرش نصف الارض » .
فاجابه النبي بما يأتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى مسيلمه الكذاب

« السلام على من اتبع الهدى ، اما بعد فان الارض لله يورثها
من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

وقد اخذ النبي ينظم الجزيرة من الناحية السياسية والتشريعية
فقد عين في كل قبيلة عاملين احدهما فانوني شرعي يعلم الناس التعاليم
الجديدة ويفقههم في دساتيرها وما ينبغي ان يكونوا عليه ، والثاني
اقتصادي يجمع اموال الزكاة وينفقها في مصارفها التي اوجبها الدستور
وان كثيراً من الاعراب لم يفتنوا الى الحكمة الجليلة التي تشتمل
عليها فريضة الزكاة ، فخالوها اناوة كاتاوات قيصر وكسرى يفرضها
محمد مقابل سلطته عليهم ولولا حكمة الدعاة وسعة افقهم وقدرتهم
على افهام الحكمة المقصودة من فريضة الزكاة لما اطمأنوا اليها .

وقد جعلت السلطة التنفيذية في يد رؤساء القبائل . والنبي الى
جانب ذلك كان كأحدث ما تكون عليه الدول في هذا العصر فكان
يبعث المفتشين السريين والمراقبين الذين يكونون عيوناً على رجال
الدولة الموظفين ومدى استمساكهم بحرفية القانون ونصوص التشريع
فالدولة لم تقم على هامش الاسلام بل هو قوامها وملاك حياتها
ولو ان الاسلام انما جاء للعرب فحسب لصح الآن ان يعلن محمد
ان رسالته انتهت وان الدور الذي امر بتمثيله من جانب الله قد
احسن القيام به واداه خير اداء ، ولكن الاسلام انما هو دين
انساني عالمي لم يأت لامة من امم الارض وحدها كالنصرانية تماماً
فمحمد والمسيح اخوان يلتقيان في الخدمة الانسانية العامة وهداية الجميع .
ومحمد لم يعلن في ساعة من ساعات حياته انه اتى بدين غير ما

جاء به موسى والمسيح فهو يدعو الى الايمان بالله واعظام الكتب المقدسة الالهية واحترام الانبياء بل وقد صلى ايضاً في بيت المقدس وجاء للثناء على هذا البيت في الكتاب ، فهو بيت مقدس ومشرف له مكانته الدينية في الاسلام .

بيد ان جماعة المسيحيين العرب الذين كانوا منتشرين في القبائل قد آلمهم هذا الدين الجديد واوجع نفوسهم فلم يطيقوا صبراً في الجزيرة بل هاجروا الى اخوانهم في الشام وطفقوا يشيرون بالاسلام ويكذبون على لسان محمد ويتزبدون على تعاليمه وانه ينتقص المسيح وامه ، مما دعا الامبراطور هرقل ان يجهز جيشاً جراراً مؤلفاً من مائة الف جندي حشده للقضاء على الدولة الاسلامية الناشئة ، جنوبي شرقي البحر الميت .

وكما ان هذه الحملة الرومية على الاسلام لم يكن لها من مبرر شرعي فان جزيرة العرب امنع من عقاب الجو وليس من الهين لجيش مها كانت عدده وعدده ان يقتحمها .

على ان محمداً تجاه هذا العدوان الصارخ لم يجد بداً من اعداد العدد وجمع الجنود فاعلن في جزيرة العرب الجهاد المقدس وطلب الى المسلمين ان يتجهنوا للحرب ، والحر يومئذ كفوهة الجحيم والناس في حاجة الى الاستبهاج واقتطاف ثمارهم والنفيق بظلالها الناعم ، ولكن نأدى محمد واي مسلم يطيق صبراً بعد نداءه واي مسلم يرضى ان يستمتع بطيب ومحمد خرج الى الرمضاء تلفح وجهه ، يستقبل الصحراء بصدرة الروح لكي يشيد المجد لله والعز للانسانية ولكي يبني الاخرة العامة الباقية ولكي يحمي عبادة الله وحده من العدوان عليها .

مرّ جيش النبي العرمم وفرسانه الابطال المقاولير بالحجر

ديار ثمود فاصدر امره ان لا يتناول احدا من مائه لانه كان موبوءاً .
وانك لتدهش حقاً ان جيشاً يقطع البيد الضامّة الماحلة التي لا
تجد فيها رقعة من ظل ولا تحس بها نسمة ندية كما لا تجد جرعة ماء
بارد ، جيشاً يبلغ العشرين ألفاً ، يصدر قائده الاعلى ، المطاع المحبوب
امره بأن لا يأخذ احد ماءً ، والماء يطرد امامهم ويتسلسل فلا تخرج
عين ولا تمتد يد اليه .

حقاً ان جيشاً مطيعاً هذه الطاعة ، وان قائداً اعلى كمحمد
الصابر الجلد الخلق ان يقذف الرعب في جيش اكبر دولة في عصره
وهذا ما كانت فان الجيش تراجع حين سمع بمقدم الجيش
الاسلامي وعلى رأسه محمد .

نعم الجيش اياماً في ظلال تبوك الوارفة وطيب هواها الطلق
وروي من ماء العذب الصافي . وفي الفترة التي قضاه في تبوك
التي هي الحدود الفاصلة حينذاك ما بين جزيرة العرب والشام ارسل
النبي رسالة الى يوحنا صاحب ايلة ، بعد ان بلغه تهقر جيش الروم
فأقبل صاحب ايلة بذاته يحمل اليه ثمن الهدايا وغالي التحف ، مقدماً
الطاعة . فأجرى النبي بينه وبين يوحنا معاهدة جاء فيها ما يلي :

- ١ - يتم السلام بين الدولة الاسلامية وبين يوحنا
 - ٢ - يعطي محمد الأمن لامارة يوحنا والحماية
 - ٣ - ليوحنا ان تدخل متاجره وسياراته في البر والبحر ولهم ذمة الله
وذمة محمد ومن كان معهم ايضاً من اهل الشام واهل اليمن
 - ٤ - لا يمنعون من طريق يسلكونه ، بر او بحر ، او ماء يردونه
 - ٥ - كل من يرتكب جريمة منهم فان عليه تبعته .
- وكذلك قدم الطاعة والجزية مقابل حماية الدولة الاسلامية من

سلطان الروم جميع القبائل النصرانية في اذرح والجرباء .

* * *

وقد نالت جميع القبائل التي تسكن في القسم الجنوبي من الشام المعاهدات التي ترجوها وتجد فيها احسن العلاقات والروابط بينها وبين الدول العربية الاسلامية ما خلا اماراة دومة التي كانت تستثير الروم وتطلب اليهم مقاتلة محمد فانه ارسل لها كتيبة من الجند يرأسها خالد بن الوليد وثاب هو والجيش الى المدينة .
وقد سارع خالد الى دومة واقتحمها على حين غرة واقتاد اميرها اكيدر بعد ان فتح له ابوابها وجمع الغنائم ولحق برسول الله .

* * *

وكم كان سرور المنافقين حين رأوا الجيش الاسلامي وعلى رأسه رسول الله يعود خالياً من الاسلاب والغنائم ، لم تقع بينه وبين الروم حرب . واعلنوا سرورهم ، ولكن الذي ساءهم وانغمهم بعد ايام هو عودة خالد منتصراً ، يأتي بالغنائم والاسلاب بل يأتي بامير دومة نفسه اسيراً وهو يرتدي حلل الديباج الموشاة بخالص العقيان .
وحين رأى المنافقون هذا النصر وهذه الاسلاب والغنائم تدرعوا بحسن السننهم وجميل كلماتهم واخفوا ما في صدورهم من الغيظ الا ثلاثة من الرجال صدقوا رسول الله في تحلفهم وطلبوا اليه الصفح والمغفرة فأمر ان يقاطعوا حتى ينظر ما يأمر الله فيهم .
وبعد مدة ، وقد حبسوا انفسهم في المسجد ، جاء الوحي بالصفح عنهم والمغفرة :

« لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاذ يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم ، »

انه رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم .

* * *

وكانت المفاوضات تجري بين النبي واهل الطائف . انهم يطلبون اليه آهتهم اللات ثلاثة اعوام فقط . وحين رأوا اباءه الشديد ضرعوا اليه ان يجعلها شهراً واحداً فأبى ايضاً ، فطلبوا اليه ان يرسل هو من يهدمها لأنهم يحشون سخطها . فانتدب النبي ابا سفيان والمغيرة ابن شعبة لهدمها . وفي انتداب النبي لهذين الرجلين اللذين كانا الى ايام قلائل يقدرسانها كل التقديس حكمة عظيمة .

تقدم ابو سفيان والمغيرة وهما يحملان المعول وقد النف حولهما اهل الطائف باكين خاشعين تحفق قلوبهم هلعاً وذعراً .

هذه حادثة الطائف ومعبودتها منذ اجيال واجيال كم ارسلت الى الطائف من خصب ، وكم بعثت فيه من غناء وكم سهرت في حراسة اهله واستجابة دعائهم وتلبية طلباتهم .

ها هو ذا ابو سفيان يحمل معوله وفي قلبه رجفة خفيفة ناعمة كتبها ما استطاع الى الكتم من سبيل وتقدم الى اللات ورفع المعول فكاد يسقط من يديه لكثرة بكاء الناس لولا ان رأى المغيرة ينظر اليه فاستحى وهوى عليها بضربة شديدة اطارت المعول من يديه او اطارتها اللات لا يدري !

وهوى على الارض والناس الذين كانت تفيض اعينهم بالدمع سرّوا كثيراً واعتقدوا في آهتهم السطوة وثقوة وانما صرعت ابا سفيان كبير قريش وقائد حروبها ، لولا ان تقدم المغيرة من اللات

وهوى عليهم بضربة قاسية شديدة اطاحتها وطاحت معها قلوب
الناس ثم جعلها جذاذاً .

وبالقضاء على اللات انتهت عبادة الاصنام والاولثان من جزيرة
العرب بتاتاً وضي الأمن الاسلامي بنوره وعدله وانسانيته
وتسامحه على كل مكان ، واخذت راية الله تميد فوق الحصون
والثكنات .

ميدي يا راية الله ميدي !!



الفصل الرابع عشر

هذه اكبر تعبئة تجتمع في العاصمة وتخرج منها فيالق فيالق وعلى رأسها محمد . تعبئة لم تشهد مثلها جزيرة العرب من قبل ولم تسمع . ماذا يريد محمد من كل هذه الفياق ، لعله يحاول فتح العالم او ان هناك عدواً حاشداً له يريد ان يبادره لا ، لا ، لم يكن شيء من ذلك . ان حياة محمد قد برحها الجهاد الطويل وانكسرها النضال وهو الآن تعب يحتاج الى الدعة والاستجمام قليلاً .

يريد ان يحج بالناس ، والحج عبادة قديمة في جزيرة العرب من بتايا دين ابراهيم ولئن دخلتها الوثنية وغيرت من معالمها الكثير ، الكثير ، الا ان محمداً طرح كل ما ادخلته الوثنية وارجع الحج الى صفائه الخالص حين فرضه الله في الحنيفية القديمة .

تسعون الفاً يؤمنون ببيت الله ملين نداء الله ، امواج كأمواج البحر ، صافية صفاء اللؤلؤ والماس ، قد نضرت وجوههم وصفت قلوبهم وطرحوا كل شهوات الدنيا وراءهم ظهرياً ومشوا في موكب رسول الله ، تنفجهم انوار السماء بعطورها ، وتظلمهم الاملاك بأجنحتها ، تسعون الفاً ينامون في ذي الحليفة ، ويصبحون الصباح واذا هم يطرحون كل آثار الناس وما يجعلهم يتمايزون ، يحرمون بلباس واحد ، لا يمتاز به امير عن مأمور ولا يستبين به سيد او مسود ، الناس في شريعة الله سواسية كاسنان المشط لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى .

يتقدم محمد الحبيب ويسوق الهدي والناس من بين يديه يتنادون نداءه ، طرحوا اسماء الآلهة القديمة وجعلوها تحت اقدامهم ، خلت

قلوبهم من تأليه شيء في السماء او الارض او عوالم الفضاء واجرامه
غير الله الخالق لهذه الكائنات الواحد القاهر :

« لبيك اللهم لبيك ! لا شريك لك لبيك الحمد والنعمة والشكر
لك لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » .

كان محمد هو المثل الاعلى لتلك الجماهير والقادة المحتداة ، يراقبون
اعماله وحركاته وسكناته وكل ما يفعل او يتكلم به ، انهم يطوفون كما
يطوف ، ويصلون في مقام ابراهيم كما صلى ، ويلثمون الحجر او
يشيرون اليه عند بدء الطواف كما فعل ويسعون بين الصفا والمروة ،
ويقفون في عرفات كما وقف ، ويستمعون الى اكبر خطبة عالمية
خالدة عرفتها الانسانية منذ نشأتها الى اليوم .

وقد مر على الاسلام ثلاثة عشر قرناً والناس يتدافعون في كل
عام على طائراتهم وسياراتهم وعلى مراكبهم المختلفة من اوربا
الوسطى ومن الهند والصين ومن اعماق افريقيا ومن اقصى بلاد
الترك ، من كل فج عميق ، يؤدون فريضة الحج كما اداهامحمد منذ
ثلاثة عشر قرناً ، ولئن قادهم محمد في المرة الاولى بنفسه فانه لا يزال
يقودهم بروحه العالية الطهور ، وبمثله الانسانية العليا ، وباخلاقه
الكريمة ، وتسامحه النادر .

وان صوته الجمهوري العريض لا يزال يدري في مسامع
الاجيال بنبراته المقدسة واغراضه السامية ونداءاته الحرة العالية
يوم وفقت به فاقته القصواء وهو يشير بيده الى الجماهير :
معلننا انه لا يجتمع اليهم في هذا الموقف بعد هذا العام ابداً .
وهي معجزة من معجزات الوحي . وانه ينادي الانسانية جمعاء في
هذه الخطبة ، لا يخص بها امة دون امة ، واول شيء يقيم له وزناً

ومكانة في الشريعة الاسلامية هو حفظ الدماء والاموال : « وان
دماءكم واموالكم حرام عليكم الى ان تلقوا ربكم ، كحرمه شهركم
هذا ، في يومكم هذا ، في بلدكم هذا » والنبي يؤكد لهم انه يبلغ
رسالة ربه الى الانسانية جمعاء وان هذا البلاغ سيصل الى كل اذن
ما دارت الارض دورتها في هذا الفضاء . « ألا هل بلغت ؟ ! اللهم
فاشهد » .

ولما كانت الامانة هي امثل خصال الانسانية وانبلها على الاطلاق
طلب الى الناس اداؤها : « فمن كانت عنده امانة فليؤدها الى من
اؤتمنه عليها » . والربا ، الربا ، الذي هدم المساواة الاقتصادية بين
البشر وجعل الفجوات الواسعة بين طبقات الامة وارث العداوات
يضعه النبي تحت قدميه ، ويعلن الناس جميعاً : « وان ربا الجاهلية
موضوع وان اول ربا ابدأ به هو ربا عمي العباس بن عبد المطلب »
كما قضى على ثارات الجاهلية وجعل حق العقوبة انما هو للسلطة
المركزية للدولة « وان دماء الجاهلية موضوعة واول دم ابدأ به
دم عامر بن ربيعة ابن الحارث » وها هو ذا في موقفه يحكم بالاعدام
على كل تقاليد الجاهلية ومآثرها « وان مآثر الجاهلية موضوعة غير
السدانة والسقاية » ثم يقيم لحفظ الأمن قواعد القصاص والعقوبات
فيجعل للقتل أي قتل العمدة الدية ولشبهه ما قتل بالعصا والحجر .
وحدد دية الانسان عامة مائة بغير والذين يزيدون عن هذه الدية
انما هم جناة مجرمون يفرقون بين افراد الاسرة الانسانية وهم من
اهل الجاهلية . وانه يبدي ثقته بأن الناس ، بعد معرفة روح العقيدة
الاسلامية ، لن يعبدوا دون الله احداً . وان الشيطان قد يشن ان
يعبد في جزيرة العرب بعد اليوم ولكنه رضي ان يطاع في غير ذلك

بما يحقرون من اعمال . وحرم العبث بالنصوص الشرعية ، وتحويلها
 وتبديلها كما كانت الجاهلية تفعل في الاشهر الحرم ، فان شاءت ابقته
 وان شاءت قدمتها او اخرتها وانه هو ذا يتلو عليهم « ايها الناس
 ان النسبة زيادة في الكفر يجلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا
 عدة ما حرم الله » وانه يعلن حق المرأة على الجماهير في هذا الاجتماع
 وان لمن حقاً كما للرجال عليهن مثل ذلك . نعم يجب على المرأة ان
 تحافظ على عفافها وان تكون شريفة لا تدخل بيت زوجها احداً
 يكرهه الا باذنه كما حرم العضل والهجر في المضاجع والضرب المبرح
 الا اذا جاءت بفاحشة مبينة . كما اوجب للنساء على الرجال رزقهن
 وكسوتهن بالمعروف ، والمرأة لم تعد سلعة كما كانت في الجاهلية
 تباع وتشترى بل انها اخذت بأمانة الله وتم عقد النكاح بكلمة الله .
 واخيراً يستوصي بالنساء خيراً ويشهد الله بأنه بلغ ذلك الى الامة
 وهنا يعلن الاخوة الانسانية وحفظ الحقوق ومحاطب الناس جميعاً
 بقوله : « ايها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل مال احد لأخيه الا
 عن طيب نفس منه . ويعلن ان استباحة اراقة الدماء انها هي من
 اعمال الكفار » فلا ترجعوا بعده كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ،
 فاني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا بعده ، كتاب الله ،
 وانه ينسخ كل مفاخرات الناس الرعناء ومفاصلاتهم ويرجعهم جميعاً
 الى الوحدة الحقيقية ، وحدة العقيدة بالله ووحدة المنصر « ان ربكم
 واحد ، وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب » ان اكرمكم
 عند الله اتقاكم ليس لعربي فضل على اعجمي الا بالتقوى .
 وفي هذا اليوم العظيم نزلت عليه هذه الآية « اليوم اكملت لكم
 دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

* * *

عاد النبي الى المدينة هو واصحابه وفي ثيابه متساعب الايام والليالي التي قضاها مجاهداً مناضلاً داعياً الى الله . عاد تعباً وما كادت تمر الا بضعة اسابيع حتى مرض فعجب الناس كيف يمرض محمد ، وهل تمرض الرسل ونسوا انه انسان يمرض ويشفى ويموت ككل انسان . وحين اشتد به المرض تطايرت الانباء في كل مكان وازدحمت المدينة بالعائدين والنبي مع كل ذلك لم ينس واجبه تجاه الدعوة ولم يدع التفكير في سبيل بقاء وحفظها وانتشارها .

انه يجهز جيشاً عظيماً ويؤمر عليه اسامة بن زيد ، قتيل غزوة مؤتة ، يؤمره وهو شاب حدث قد ناهز العشرين من عمره ، على كبار الرجال ليعود الشباب القيام بالعظام وتحمل المسؤوليات والتبعات الجسام . وحسبك ان تدرك مدى هذا الجيش ان تعلم ان من جنوده امثال ابي بكر وعمر .

ولكن الجيش اجتمع في الجرف وهو مكان قريب من المدينة ولم يبرحها ، انتظاراً لشفاء رسول الله اذ اشتد به المرض .

وكانت فاطمة الزهراء ابنته تؤنسه في مرضه وترفعه عنه . وفي يوم اسر لها كلمة فبككت ثم اسر اخرى فضحكت فعجبت عائشة من بكائها وضحكها معاً في ساعة واحدة متسائلة ما ابكاك واضحكك فابت ان تسيح سر رسول الله اليها . ولكن بعد انتقاله الى الرفيق الاعلى قالت لها : انه اخبرني في المرة الاولى انه سينتقل الى الله فبكيت فطمأنني في المرة الثانية وقال لي : ستكونين اوله اهلي لحاقاً بي ، فضحكت .

وفي مرضه خرج مرة الى البقيع وزار المؤمنين الذين سبقوه ودعا لهم بقوله : « السلام عليكم يا اهل المقابر ، ليهنأ لكم ما اصبحتم

فيه مما اصبح الناس فيه . اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع
آخرها اولها ، الآخرة شر من الاولى .

وحين ازدحم الناس حول المسجد بعد ان رأوا ابا بكر يصلي
بهم وقد خلى المحراب من النبي ضجروا وضجوا وازدحموا حول
حجرات رسول الله وفي المسجد خائفين مضطربين ، فدخل العباس
الى النبي وقص عليه ما شاهد من حال الناس وخوفهم ، فخرج اليهم
متوكئاً على عليّ والفضل وجلس الى آخر مرقاة في منبره وخطب
الناس .

* * *

وفي فجر يوم الاثنين والناس يؤدون صلاة الفجر في الغلس ،
امر النبي برفع السجف واطل عليهم فكاد يفتن الناس فرحاً برسول
الله حتى ان ابا بكر تأخر عن المحراب ولكن النبي اشار اليهم ليتموا
صلاتهم وأمر بارخاء السجف وهو يتسم .

اعتقد ان قوماً اجتمعوا في ظلام الليل يؤدون فريضة الله
رجالاً ونساءً ، خاشعين مؤمنين ان يضيع الاسلام من بين ايديهم
ولن تقوى عليهم امم الارض . وما كادت الشمس تطلع وقد بدا
النبي كأحسن ما يكون وطلب اناؤه من الماء اخذ ينضح فيه يديه
من شدة وطأة الحمى ويفسل وجهه والضحوة تزداد والنبي يشخص
ببصره الى السماء وقد نضر وجهه واشرق واذا بعائشة التي قد اسند
رأسه الى ركبتهما ترى عينيه تلتمعان ويزداد الى السماء نظراً ثم
يسكن وهو يقول هاتين الكلمتين :

الى الرفيق الاعلى ! الى الرفيق الاعلى

(انتهى الكتاب بحول الله) -

الفهرس



صفحة

	المقدمة
١	الفصل الاول
١٤	الفصل الثاني
٢٤	الفصل الثالث
٣٦	الفصل الرابع
٤٤	الفصل الخامس
٥١	الفصل السادس
٥٧	الفصل السابع
٦٧	الفصل الثامن
٧٧	الفصل التاسع
٨١	الفصل العاشر
٩١	الفصل الحادي عشر
١٠٢	الفصل الثاني عشر
١٠٩	الفصل الثالث عشر
١١٦	الفصل الرابع عشر

نصهر دار الانصاف المؤلفات التالية:

= الرياضة الحديثة : الجزء الاول والثاني (الطبعة الثانية)
للاستاذ عارف الجبال

= محمد ، حياته وتعاليمه . ترجمة الاستاذين : محمد صالح البنداق
وهاشم الدفتردار المدني

وهو الكتاب الوحيد الذي بحث السيرة النبوية من الناحية
النفسية وآثرها في التعاليم الاسلامية . وقد وضعه باللغة الالمانية
المطران تورا اندريه مطران مدينة ابسالا (بلاد السويد) ومدرس
فلسفة اللاهوت في جامعته .

= الى غرناطة (الطبعة الثانية) تأليف هاشم الدفتردار المدني
دستور اصلاح الاسلام السياسي »
» » »
= اصلاح الاسلام الاقتصادي (الطبعة الثالثة منقحة)

تأليف هاشم الدفتردار المدني

= سلسلة دراسة الاديان العالمية الكبرى يضعها الاساتذة :
محمد صالح البنداق وهاشم الدفتردار المدني ومحمد علي الزعبي .

THE [illegible] [illegible]

OF THE [illegible] [illegible] (1847-1848)

BY [illegible]

THE [illegible] [illegible]

OF THE [illegible]

THE [illegible] [illegible]

THE [illegible] [illegible]

THE [illegible] [illegible]

THE [illegible]

THE [illegible] [illegible]

THE [illegible] [illegible]

THE [illegible] [illegible]

THE [illegible] [illegible]

THE [illegible] [illegible]

THE [illegible] [illegible]

فيه بما اصبح الناس فيه . اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع
آخرها اولها ، الآخرة شر من الاولى .

وحين ازدحم الناس حول المسجد بعد ان رأوا ابا بكر يصلي
بهم وقد خلى الحراب من النبي ضجروا وضجوا وازدحموا حول
حجرات رسول الله وفي المسجد خائفين مضطربين ، فدخل العباس
الى النبي وقص عليه ما شاهد من حال الناس وخوفهم ، فخرج اليهم
متوكلًا على علي والفضل وجلس الى آخر مرقاة في منبره وخطب
الناس .

* * *

وفي فجر يوم الاثنين والناس يؤدون صلاة الفجر في الغلس ،
امر النبي برفع السيف واطل عليهم فكاد يفتن الناس فرحاً برسول
الله حتى ان ابا بكر تأخر عن الحراب ولكن النبي اشار اليهم ليتموا
صلاتهم وأمر بارخاء السيف وهو يتسم .

اعتقد ان قومًا اجتمعوا في ظلام الليل يؤدون فريضة الله
رجالاً ونساءً ، خاشعين مؤمنين ان يضيع الاسلام من بين ايديهم
ولن تقوى عليهم امم الارض . وما كادت الشمس تطلع وقد بدا
النبي كأحسن ما يكون وطلب اناه من الماء اخذ ينضح فيه يديه
من شدة وطأة الحمى ويغسل وجهه والضجوة تزداد والنبي يشخص
بصره الى السماء وقد نضر وجهه واشرق واذا بعائشة التي قد امتد
رأسه الى ركبتهما ترى عينيه تلتصعان ويزداد الى السماء نظراً ثم
يسكن وهو يقول هاتين الكلمتين :

الى الرفيق الاعلى ! الى الرفيق الاعلى

(انتهى الكتاب بحول لله) -

الفهرس



صفحة

	المقدمة
١	الفصل الاول
١٤	الفصل الثاني
٢٤	الفصل الثالث
٣٦	الفصل الرابع
٤٤	الفصل الخامس
٥١	الفصل السادس
٥٧	الفصل السابع
٦٧	الفصل الثامن
٧٧	الفصل التاسع
٨١	الفصل العاشر
٩١	الفصل الحادي عشر
١٠٢	الفصل الثاني عشر
١٠٩	الفصل الثالث عشر
١١٦	الفصل الرابع عشر

نصرد دار الانصاف المؤلفات التالية:

= الرياضة الحديثة : الجزء الاول والثاني (الطبعة الثانية)
للاستاذ هارف الجبال

= محمد ، حياته وتعاليمه . ترجمة الاستاذين : محمد صالح البنداق
وهاشم الدفتردار المدني

وهو الكتاب الوحيد الذي بحث السيرة النبوية من الناحية
النفسية وآثرها في التعاليم الاسلامية . وقد وضعه باللغة الالمانية
المطران تورا اندريه مطران مدينة ابسالا (بلاد السويد) ومدرس
فلسفة اللاهوت في جامعتها .

= الى غرناطة (الطبعة الثانية) تأليف هاشم الدفتردار المدني

دستور اصلاح الاسلام السياسي
== اصلاح الاسلام الاقتصادي (الطبعة الثالثة منقحة)

تأليف هاشم الدفتردار المدني

= سلسلة دراسة الاديان العالمية الكبرى يضعها الاساتذة :

محمد صالح للبنداق وهاشم الدفتردار المدني ومحمد علي الزعبي .

1. The first of these is the

the first of these is the

the first of these is the

the first of these is the

the first of these is the

the first of these is the

the first of these is the

the first of these is the

the first of these is the

the first of these is the

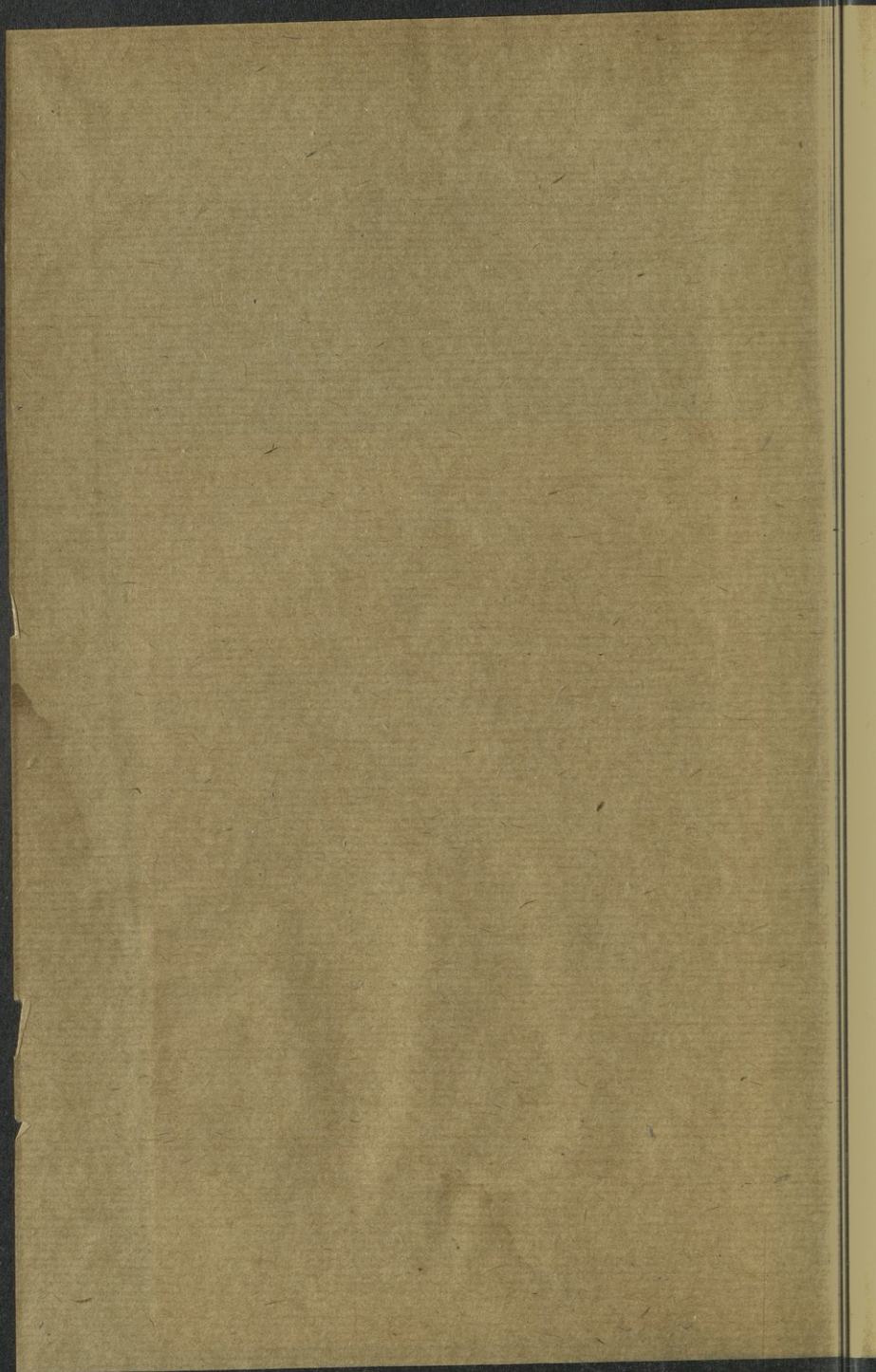
the first of these is the

the first of these is the

the first of these is the

the first of these is the

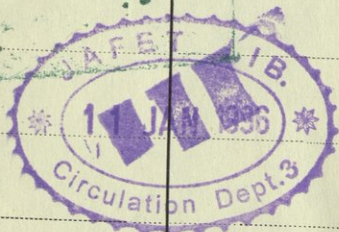
the first of these is the



DATE DUE

~~1 MAY 1973~~

~~APR 1986~~



297.63:B277mA:c.1

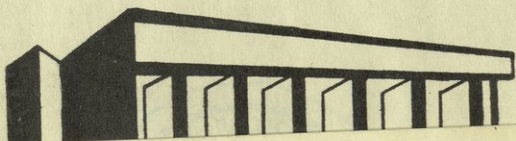
الدفتردار: هاشم

محمد نابوليون السماء

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011111



297.63:B277mA

بروا

297.63
B277mA

297.63
B277mA
C.1